

د. عبدالجلیل مراد

مباحث لغویة فی ضوء
الفکر اللسانی والحديث

د. عبد الجليل مرتاض

مباحث لاهوتية في ضوء

الفكر اللساني الحديث

© حقوق النشر محفوظة لمنشورات ثالة 2003.

الإيداع القانوني : 436- 2003

ردمك : 1 - 43 - 905 - 9961

منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر العاصمة.

مقدمة

رب يسر، وأعن بلطفك..

وبعد :

هذه المباحث والآراء اللغوية المتداخلة قدمًا وجدة، أصالة وحادثة في واقع الأمر، كانت قد هيئت منذ عشرية كاملة قبل نهاية هذا القرن الذي بدأ يلوح لنا بأخر دورة من دورات رحاه.

وكان يفترض فيه مبدئيًا أن تكون في بداية القسم الثاني من أطروحتنا في الدكتوراه التي نوقشت منذ ست سنوات، ولكنني قدرت في نهاية الأمر أنها مباحث وآراء ونظريات لسانية غريبة بعض الغرابة عن جوهر موضوعنا (دراسات سانتكسية للهجاء العربية القديمة) مادة، ومنهجاً ؛ على الرغم من إثباتي لثلاثة مباحث تصدرت ذلك الموضوع، لكونها متداخلة في انسجامها بشكل عام مع هذه المباحث.

وبعد تردد وتذبذب طويلين، ارتأيت أن أطبعها دون تنقيح في النقص ولا في الزيادة.

ولعل المتلقي الذي يقدر له أن يطلع على بعض أعمالنا الأخرى إن قدر لها أن ترى النور، فإنه سيلاحظ بعض التداخلات أو التقاطعات في هذه الدراسة المتواضعة يحق لنا حتى

في بعض النصوص، بل ربما سيقف على أن ندعي بأن البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية غير قار ولا ثابت، ولو كان الأمر كذلك، لكسرت الأقلام، وعطلت العقول، وجمدت البحوث، وأخذت الأجيال اللاحقة إلى الراحة والكسل.

ولما كان الجيل الواحد قد يكون أجيالاً في نفسه وزمنه وعقله وتطوره، فليس من العيب إطلاقاً أن يتداخل أو حتى يتناقض الباحث في فترة قصيرة أو طويلة مع نفسه أسوة بتداخله وتناقضه مع باحثين آخرين سبقوه أو اعتقبوه.

فالعيب كل العيب أن يظل الباحث جامداً متعصباً أو مغروراً بكيت وكيت، مع أن الحقيقة في الحركة الدائبة ونشوانها في السماحة والتفتح على الرأي المخالف، حتى ولو كان هذا الرأي المخالف نابغاً من موقف الباحث نفسه.

تلمسان، في 20-11-1999

د. عبد الجليل مرتاض

جامعة تلمسان

الباب الأول

والفلسفة في العربية القديمة

1

شفوية التراكيب السانتكسية في العربية

باختصار، نريد أن نبين بأنه خلال جمع اللغة العربية من
الوادي الجبلية والمناطق الصحراوية، فإن جماع اللغة، كانوا
يحددون بكيفية صارمة المناطق الجغرافية لهذا الجمع، لم يجمعوا
اللغة العربية إلا انطلاقاً من لهجة جماعة ذات جيلة أو سليقة
غير مطعون في فصاحتها.

إذا وجدت هناك جراءة من أحد جماع اللغة أو اللسانيين
بالمصطلح العام لقبول كلمة أو تعبير لهجي معزول أي خارج
هذه المناطق الجغرافية اللسانية، فإن ذلك كان يرجع إلى محاولة
إيجاد مخرج أو مصدر لظاهرة سانتكسية لعدم وجود مصدر آخر
في تلك المناطق الجغرافية اللسانية المثالية.

إن اللهجات العربية كانت غالباً مرة مهمشة وتارة مهجورة
أو منبوذة من قبل لسانيينا القدماء لأسباب معيارية أكثر منها

لسانية، لأن هؤلاء الذين يمثلون الطبقة اللسانية الأولى كان يستحوذ عليهم العامل الديني المرتبط بوجه خاص بالقرآن الكريم وقراءته وتفسيره واستخراج شتى أنواع الأحكام منه ؛ فهؤلاء وجدوا أنفسهم مباشرة أو بوقت قصير بعد تدوين القرآن الكريم. أكثر من هذا أن نشأة هذه الدراسات اللغوية عند العرب مرتبطة بأحد الخلفاء الراشدين الإمام علي أو أبي الأسود الدؤلي الذي باشر في سنّ ضوابط للمصحف بنقاط حلت فيما بعد محلها حركات العربي بينما غيرت وظائف هذه النقاط الدولية لتصير دالة على الإعجام ولو أن هذه القضية لم تكن إلا مشروعاً تمهيدياً، لكن مع هذا يجب أن يعترف بدون أية مبالغة بأن هذه الخطوة كانت بحق رائدة ليست فقط للدرس النحوي بل للدراسات اللغوية العربية قاطبة، وكما كان متوقّعا وفق أي منهج معياري دقيق، فإن هذا النحوي العربي الأول لم يذكر التركيب اللغوي وفق بُناه المتعددة والنهائية وغير النهائية، لكنه ذكر ذلك حسب المستوى التقليدي أو الظاهري لتلك التراكمات القليلة والقصيرة والتي يُفترض فيها أنها منسوبة إليه بناء على البنى النحوية المرجحة بقوة إليه، لكن يمكن القول من بعض الوجوه بأن هذه الخطوة التي اعتبرها عملاقة، لئن لم تذكر هذه البنى العميقة بكيفية مباشرة فإنها عبرت عنها بواسطة الأشكال والظواهر من خلال البنى السطحية، ذلك أن إعراب لغة متصرفة، كما هو حال العربية في حد ذاته مؤسس من الداخل على تحليل سانتكسي بشكل ما، لأنه في وجهة نظرنا، فإن الهدف الأسمى في أي تحليل لغوي أو تقعيد لقاعدة هو أن نميز بين شكل أو تركيب سانتكسي أنتج سلفاً ثم تُلقِي لاحقاً كبنية اكتسبت هويتها في الذاكرة الجماعية

أو الشعبية بحيث أضحت هي نفسها ملتزمة بذلك العقد المتجسد في القوانين النحوية وأساليب الخطاب الدلالية، وبين تراكيب سانتكسية لم تتحقق بعد أولم تزل في خطابات اعتباطية لم يقع عليها التواضع أو الاصطلاح.

وبعبارة أخرى، ينبغي أن يميز :

1. بين ما هو منتسب إلى الكلام.
2. بين ما هو منتسب إلى اللغة.
3. بين ما هو منتسب إلى اللسان.
4. بين ما هو مرتبط بخطاب خاص وخطاب عام.
5. بين ما هو تركيب لهجي محلي وتركيب لغوي موحد (Standard) أو تركيب أكثر أو اعم شيوعاً من الآخر.

إن الخطوة الأولى في البحث اللغوي العربي أدركت بصورة تتمّ بنفسها عن نفسها تكرارية (Récurcivité) الظاهرة اللغوية وافترضت بشكل واع نهاية الجمل الأصلية أو النواتية تاركة القياس للمتكلم لإنتاج صيغ وجمل أخرى خاضعة للعلاقات الممكنة الكامنة في ذلك الترابط المتضامن بين كافة عناصر هذا التركيب أو ذاك في مستوييه : النحوي والدلالي بناء على كفاءة هذا المتكلم البديهية أو السليقية وعادات أدائه وتواصله من الداخل (من نفسه) ومع الخارج (مع غيره من المتلقين) ؛ هذا فضلاً عن مستويات أخرى مثل المستوى المورفولوجي والصوتي أو الفونتيكي والفونولوجي أو الصوتي الوظيفي.

ونشير إلى أن الدرس اللغوي عند العرب كان من الطبيعي أن ينطلق في بدايته من التراكيب والقوالب اللغوية الثابتة أو الموحدة، ونتيجة لذلك وعوامل أخرى، غالباً ما بقيت التراكيب اللهجية مزدرة إلى درجة الزعم بأن القرآن الكريم كوحى إلهي وككلام مقدس قد عمل على وقاية تراكيب لهجية عربية عديدة أكثر مما وقاها لسانيون أنفسهم، وذلك بفضل قراءاته المتعددة المرخصة بالحديث الشريف المشهور (أنزل القرآن على سبعة أحرف).

أما هذا الإهمال أو شبهه من قبل لغويينا القداماء على الرغم من أن النص القرآني لا يخلو من عشرات الأشكال اللهجية فإن الدراسات المنجزة في حقل الفقلغة (فقه اللغة) العربية كانت مع الأسف مجردة من علم لهجات مستقل.

ينجم عن هذا أن الفضاء الديالكتولوجي (Dialectologie) في العالم العربي لم يكن ثرياً ولا مؤسساً على قاعدة لسانية علمية تفرق بين ما هو علمي مخبري وبين ما هو عاطفي أو جهوي حتى أصبح الخوض اليوم في هذا الموضوع أقرب في مفهوم البعض إلى إشكالية سياسية منه إلى إشكالية لغوية واقعية وطبيعية في الآن ذاته، مما جعل أجانب عن هذا الفضاء يلاحظون هذا الفراغ الهائل فيتسابقون إلى سبره ودراسته بتعبيرهم عنا لا بتعبيرنا عن ذواتنا؛ حتى إنه ليتمكن القول بأن القراء كانوا أكثر واقعية مع هذه الأنماط اللهجية من الفقلغيين (فقهاء اللغة) أنفسهم، ولذلك لا يعجب المتتبع إذا لاحظ إحالات على مصادر مستقاة من القراءات القرآنية، حين يكون البحث متصلاً بمثل هذه الحقول.

إن الوثائق الخاصة بهذا الحقل نادرة جدًا، وذلك دون أن نتجاهل الأعمال التي أنجزت إلى يومنا هذا من عدة باحثين في العالم العربي وحتى خارجه، ولا سيما تلك التي أثارَت مسائل لهجية مهمة وجادة. وعلى العكس من هذا، فإن اللهجات العربية القديمة لم تدرس بعد دراسة مستقلة على المستوى السانتكسي مثلًا، ولتجسيد هذه التصورات فعليًا، كان لزامًا على الدارس أن يقرأ ويراجع كل الوثائق المادية لهذا الصنف من التعبير الذي ظل طوال قرون خلت مثل كنز منسي أو موضوعي مقدس لا يخرق.

وللحصول على عدة مدونات أساسية يجب علينا أن نؤسس عملنا على المدونات القديمة من نصوص لغوية وأدبية وروايات شفوية سجلها العلماء نقلًا عن أفواه الأعراب،... إلى جانب القراءات القرآنية وكتب التفسير والتي لا تزال تتضمن جملاً أو تراكيب تتم عن فوارق لهجية في كل المستويات، والنماذج المعزوة إلى أقوام بأعيانهم تمكننا من وضع دراسة تحليلية قد تكون ذات مقاربات جديدة من حيث الجمع والحصر. وهذا لا ينفي أن يعترف الدارس بتلك الالتفاتات الموثقة في مصادر أدبية ولغوية ونقدية من بعض الدارسين القدماء، والتي لا تتكر بأنها إرهاصات أولية لعلم لهجات حقيقي.

وحين نشير إلى المدونات الرسمية فإن هذا الإطرق ليس جامعًا مانعًا ولا يقوم لنا حجة صارمة لاستبعاد نصوص أو تعابير عتيقة (archaïques) إننا واعون بوجود تسلسل منطقي بين هذه التعابير والمستوى الدلالي، وبعبارة أخرى هناك نوع من

العلاقات الفضائية بين أمثال شعبية وأكثر من هذا، فإن الدراسات الأنثروبولوجية التي ظهرت حديثاً هنا وهناك ولا سيما في روسية برهنت بأن الأمثال الشعبية الأقرب صلة باللهجات المحلية للشعوب وخاصة تلك التي تعتمد التواصلات الشفوية أسلوباً ونهجاً في حياتها وعاداتها، لا تعرف إلا قانوناً واحداً هو قانون الطبيعة، هذا القانون يسمح لها بالعبور طليقة في فضاء مشترك بين عدة مجموعات من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا.

إن الخصائص البنيوية للهجات العربية القديمة لا تشكل فقط لغة العرب الصحراوية، لكنها تمثل كذلك كنه مجموعة اللغة الشفوية المتواضع عليها عموماً بين كل المجموعات اللسانية العربية، دون الأخذ بعين الاعتبار، طبعاً، الحدود الجغرافية أو أية عوامل أخرى أياً كانت، والتي لم يكن لها أي استطاعة لسانية مطلقة لمنع التيار اللغوي ليجوب أو يخرق هذه العوامل الوهمية المتعلقة بقوم أو عشيرة أكثر مما هي متصلة بحركة لسانية شفوية لا حدود لفضائها.

على الرغم من الظروف الوقتية والتي كانت في مجملها قاسية بين المجتمع العربي الجاهلي، فإنه في المقابل لم يكن بوسع هذه القبيلة أو تلك أن تخلق تعبيراً مختلفاً جوهرياً عن تلك اللغة العفوية المشتركة التي كانت تعتبر كإرث جماعي، لكن التباينات كانت تقوم غالباً في طرق التواصل ككلام فردي غير خاضع للمراقبة بكيفية صارمة، وهذا شيء طبيعي في بيئة تعيش على طبيعتها وعفويتها، ومن هنا نرى انه من الأنسب أن يُتحرى كل

التعابير الممكنة التي كانت القبائل العربية معتادة على التلفظ بها لكن على نحو مختلف على المستوى السانتكسي.

من حيث المبدأ، فإننا نعتقد بأن اللهجات العربية القديمة في حد ذاتها وعلى تباينها هي اللغة العربية الفصحى نفسها والتي تشكل الأساس للعربية الشفوية لقاطني الحضر كساكني البادية، خاصة وأن القرآن حولها حالاً إلى لغة مكتوبة منذ عهد النبي ﷺ .

إن وجود أشكال لهجية باعتبارها لغة منطوقة والتي لها معايير نوعية مقابل اللغة العامة، لا يستطيع دارس مهتم بالموضوع أن يردّها، وذلك منذ ظهور بعض الأنماط اللسانية التي شرعت تفرض وجودها وسط الحقل المعني حيث كان اللسانيون العرب القدماء يمارسون بقسوة أشغالهم في علوم اللغة، لكن هذه الأشكال اللهجية المنشقة مثلما كانت عقبات أمام هؤلاء اللسانيين المتصلبين، فإنها كانت في الآن ذاته نبراساً كثيراً ما أضاء الطريق لقراء القرآن بوجه خاص، فضلاً عن ذلك أنها وجهت اللسانيين أنفسهم حيث منحتم معلومات لا يستهان بها فيما يخص بعض التخريجات اللغوية عموماً منها والسانتكسية خصوصاً.

2

بين السانتكس التقليدي والمعاصر

إننا لا نريد أن نتعمق في تعريف السانتكس في هذا الجزء من عملنا، لأنه من غير المنطق بالنسبة للسانيات العامة وبالنسبة لموضوع السانتكس أو مصطلحه أن نعرّف هذا المصطلح بمعزل عن تعريف الجملة التي تعد روحه والنقطة المركزية التي تدور عليها أعمال أي سانتكس ؛ ثم إنّه شتان ما بين تعريف قديم أو وسيط وبين تعريف حديث أو معاصر.

وحتى لا نترك هذا المصطلح موضوعاً لتساؤلات متتبع هذا العمل فإنه لا بأس أن نستعرض – ولو سطحياً – بعض هذه التعاريف المجمع على عالميتها، منها أن «السانتكس (Syntaxe) للسان (langue) هي مجموعة الوسائل التي تمكّننا من تنظيم الأقوال (أو الملفوظات) (les énoncés) لإنابة كل كلمة وظيفية ولتعيين العلاقات التي تستقر بين الكلمات إن ترتيب الكلمات (l'ordre des mots) هو أحد المميزات لكل سانتكس : إن الدور

يكون أكثر أو أقل أهمية حسب كون اللغة متصرفية (Flexionnelle) (تتضمن علامات إعرابية تقوم ببيان العلاقات) أو بالعكس تحليلية (analytique) (ليس لها علامات إعراب ؛ إن ترتيب الكلمات في اللاتينية كان أكثر مرونة، وهو في الفرنسية بالأحرى متصلب»¹.

وإذا اعتبرنا السانتكس بمقابل ما كان يعرف تقليدياً بعلم النحو قديماً عند العرب والأجانب وإلى وقت قريب جداً لدى اللسانيين لمحدثين فإنه من الممكن أن نورد له تعريفاً آخر مشابهاً للأول، بحيث إن «نحو لسان (langue) أيًا كان يمكن أن يُتصور كنظام من القواعد التي تقابل تمثلاً دلاليًا وتمثلاً صوتيًا لجمل هذا اللسان ؛ هذان التمثلان معطيان مبدئيًا في كلمات هذين النظامين العاميين (universels) مستقلين عن السن خاصة : نظام التمثل الصوتي المقترح بأسلوب تشومسكي وهال (Halle) (1968) ونظام التمثل الدلالي، والذي طبيعته، كما يعرف كل واحد، لا يبرح مجهولاً بكثرة، إن النحو يحدد من جهة أخرى، مجموعة لا متناهية للبنى السطحية الأحسن تشكيلاً والتي تُحول إلى تمثيلات صوتية بواسطة نظام من القواعد الفونولوجية، إن النحو يحتوي كذلك على مجموعة من قواعد التحويل،... قواعد التحويل هذه خاضعة لمختلف القيود، بعضها عامّة (universal) وأخرها مخصّصة لقواعد كل نحو على حدة»².

على أي حال، فإن السانتكس التقليدي كان ينطلق من معالجة قياسية أو عدم قياسية الجمل أو التراكيب المحكية كأشكال غير

1. Maruna Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, éd du Seuil, p. 19.

2. Nicolas Ruwet, *Théorie syntaxique*, éd du Seuil, 1972, p. 13.

مؤكدة بين المتكلمين غير السليقيين (non natifs) لكنها ليست بمعزل عن المتكلمين السليقيين (les locuteurs natifs) الذين يفترض فيهم أنهم يمثلون المعطيات الجوهرية الحقيقية للخطابات المحكية أو المروية عن الأجداد أو الأسلاف أنفسهم وفق كفاءة لسانية مثالية وأداءٍ مصاحب لها، وذلك دون استبعاد الذهنية العربية البدوية لهذه الفترة قبل جمع اللغة العربية وتدوينها في السطور نقلاً عن الصدور.

إن الذهنية العربية لهذه الفترة الشفوية كانت تتميز بعادة عفوية قائمة على التقليد، لكنه تقليد فاعل، وليس تقليداً متحجراً، كما كانت في الآن ذاته معجبة أيما إعجاب بأخلاق وتصرفات الأسلاف مهما كانت تلك العادات، حتى أن القرآن الكريم وصفهم بقوله : «إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون».

ربما من أجل هذا، أي من أجل الاحترام المطلق للسلوك الموروث فإن السانتكس التقليدي كان يفترض قبل أي شيء وجود جمل غير قياسية أو غير تامة، والتي كانت تفسر انطلاقاً من نماذج أو قوالب أكثر قياسية أو أساسية، هكذا، في الإغريقية :

(Anthropos Trekhei) أي الرجل يعدو، كانت (الجملة) تعتبر كشكل أساسي (Anthropos Trekhon esti) أي الرجل جار أو متسابق أو (l'homme est un coureur) أي الرجل عداء، تبعاً لنموذج الاختصار أو التقليل للجمل المنطقية.

على أي حال، هناك بعض اللسانيين من يحكم انطلاقاً من بعض الجمل بأن السانتكس القديم كان يقوم «بالأولى على نماذج

من الجمل منه على ملفوظات (énoncés) فردية¹. هذه الاعتبارات التي كانت دائماً وفق تنظيم دلالي صيغت في كلمات ومصطلحات لم تخل في معظم رؤاها وتفسيراتها وتعاملاتها مع اللغة من التأثير المنطقي، مع أن الكلام الإنساني هو من تحصيل الحاصل، لكن هذه هي المنهجية التي سادت في غابر الزمن، وفي العصر الوسيط، وفي نحو مدرسة بور رويال (Port Royal) ونحسب أنها لا تزال سائدة في كثير من مواقف اللسانيات المعاصرة وبعض مصطلحاتها إلى يومنا هذا.

بعد هذه الفترة، يمكن القول بأن السانتكس قد عرف أفكاراً جديدة، تتمظهر في المفهوم البسيكولوجي الذي عني بإيجاد بعض الطرائق البديلة بغية التوصل إلى دلالة أو معنى الملفوظات الفردية بواسطة تحاليل ليست هي بالمنطقية، لكنها تقوم على الإدراكات البسيكولوجية، والرجل الأكثر إثارة للفضول في هذا الميدان هو شارل بالي (Charles Bally) الذي سعى كثيراً قبل أن يتأتى له إلى جعل هذا الموضوع مألوقاً، بل استطاع أن يجسد الأقوال الفردية التي تكون بدون انقطاع التكملة اليومية.

بهذه الكيفية الاسلوبية، فإن السانتكس تكون قد عرفت تآلقاً جديداً إزاء استغلال اللغة البصرية قبل أي شيء، ثم الوحدات المستعملة في هذه اللغة، فضلا عن ذلك، فإن هذا التحليل الجديد حاول أن يعطي تفسيراً للعلاقات الدلالية الكامنة تحت البني السطحية (sous-Jacents) للقول أو الملفوظ (énoncé).

1. المرجع السابق، ص. 366.

وإذا ذهبنا إلى القول بأن الوسائل التي اعتمدها بالي ليست بالجديدة مثل التعجب والاستفهام والاستغراب والمواقف الفردية ورد الفعل حول خطاب بأسلوب معين،... فإننا نستنتج في الوقت نفسه بأن هذا الرجل قد أعاد الاعتبار إلى السانتكس القديم لكن بطريقة جديدة لتلقي الملفوظات.

إنه يمكن اعتبار السانتكس التقليدي هو السانتكس الحقيقي الذي عبّر عن الشعور الإنساني عن قرب، كما كان يمثل في الآن ذاته الوقائع اللسانية الحقيقية التي كانت تترجم بوضوح حقيقة الإنسان الداخلية، بمعنى أن السانتكس القديم يمثل واقع الوظيفة من الداخل معبراً عنها بالخارج، «كل الناس متفقون حول هذه النقطة : الوظيفة التبليغية (fonction communicative) هي أول وظيفة أصلية وأساسية للغة، وكل ما عداها ليس إلا طابعا لنماذج ليست ضرورية»¹.

إننا ندرك الواقع اللساني فقط كقواعد نحوية أو معجمية ثم إنجازها في لغة طبيعية، لكننا نفهمه أيضاً كمرسلة تبليغية بين مرسلين ومرسل إليهم على هذا النحو :

مرسل \longleftrightarrow واقع لساني \longleftrightarrow مرسل إليهم

انطلاقاً من عدة عوامل أكثرها أهمية التجربة اللغوية على شاكلة الأسلاف المسموع عنهم والمتعايش معهم (فيما يخص لغة طبيعية أو لهجات عربية حالياً مثلاً،...)

1. G. Mounin, *Clefs pour la linguistique générale*, éd Seghers, 1971, p. 7.

ويمكن أن نقبل بعض التعريفات الأخرى التي تعمق المفهوم السانتكسي بشكل عام حتى يأخذ المنتبع لهذا العمل فكرة عامة ثم يقابلها بما أشير إليه بخصوص دور ووظيفة السانتكس القديم.

إن قليسون (Glisson) يعرف السانتكس بقوله : "من المناسب أن يقسم النحو إلى قسمين اثنين : المورفولوجيا والسانتكس، عمليتا الاشتقاق والتصريف تشكلان البناء (كلمات) إن هذا ما تعالجه المورفولوجيا، هذه البناءات تنتظم كبناءات أكثر أهمية في مختلف الأنواع بكيفية تقريبية، يمكن أن نعرف السانتكس كمجموعة فمن القواعد التي ترأس هذا التنظيم"¹.

لكن هذا اللساني المعاصر الذي غدا منذ مدة مرجعاً أساسياً في الجامعات الغربية في ميدان النظريات السانتكسية بعد تشومسكي وأنداري ما رتيني،.. يعترف بأن "التمييز بين المورفولوجيا والسانتكس ليس دائماً دقيقاً"².

لكن هذا اللساني يفهم من بعض أعماله التي طبقها على اللغة الإنجليزية قد لا تنطبق على كل اللغات العالمية، ولذلك أرفد قائلاً : «من المفيد أن يعرف السانتكس في عدة لغات كما سنعمل»³.

ومما ورد أعلاه لا يفهم إلا شيء واحد، هو أن كل لغة أو عائلة لغوية على أبعد تقدير تتميز بخصائص نوعية، وستبقى طرائق الخطاب، ولربما هذه الفكرة التي نتبناها وندافع عنها طبقاً

1. Galisson, *Introduction à la linguistique*, p. 150.

2. المرجع السابق، ص. 150.

3. نفس المرجع السابق، ص. 105.

للقائع اللغوية وعادات المتكلمين في التخابط والتواصل قد تتقاطع مع بعض ما ذهب إليه جورج موانان الذي قال : «ومع ذلك، فإن اللسانيات تبرهن لنا في كل لحظة بأن كل لغة تطابق عادة تنظيم قد يكون دائماً خاصاً وفق معطيات التجربة، وأن التمهصل أو التلفظ الأول (première articulation) لهذه اللغة مدقق بالكيفية التي تتحلل وتتنظم وتترتب بها التجربة المشتركة لكل الأعضاء لمجموعة لسانية محددة، هذه الرؤى قد كانت دعمت من قبل قيوم (Guillaume)، وبالضبط، من قبل الفيلسوف (Ernest cassirer) واللساني الأمريكي (Whorf)، وذلك قبل سوسور واللسانيات الحالية»¹.

وإذا كانت التجربة التي نجدها تتكرر في أعمال أندري ما رتيني اللسانية تتجسد في الفرد المتكلم ومدى كفاءته اللغوية، فإن كل لغة إنسانية (أقصد نظمها) تتميز بميزة نوعية داخلية ترتبط قبل كل شيء بهويتها التي تتم عنها تلك الطاقة اللسانية الخلاقة في الأداء والتعبي.

من هذه الطاقة المرتبطة بسانتكس كل لغة ما نجده موزعاً حول طبيعة وإشكالية السانتكس العربي القديم، لكننا نجتزي هنا — على أن نعود بعد حين — بأول ما ظهر منها كدلالة على أصالة النواة الأولى للنظريات السانتكسية العربية، منها تلك التفاوتات في التسامح مع المتكلم الفرد أو الطعن عليه، وذلك كلما لاحظ هؤلاء انحراف تركيب عن سليقيته المعهودة سواء من الناحية النحوية أو المورفولوجية — حسب تقسيم قليسون أعلاه.

1. G. Mounin, *Clefs pour la linguistique générale*, éd Seghers, 1971, p. 73.

فإذا كان أبو عمرو أشد تسليماً للعرب، وأن يونس بن حبيب كان يقف أحياناً موقفاً وسطاً (والذي قال جازر حسن¹) أو يتفقان علمياً أو عفويًا في الحياد إلى جانب أبي عمرو بن العلاء أمام بعض المعضلات التي تطرأ أو يتلفظ بها متكلمون فصحاء كموقفهما من الفرزدق، فإن ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر كانا يطعنان على العرب². ولذلك وقف ابن أبي إسحاق موقفاً متصلباً من الفرزدق حين جر كلمة بدل أن يرفعها حسب ما تقتضيه القواعد في قوله :

على عمائمنا يلقى وأرخلنا على زواحف تزجي، مخها رير

إن الأمثلة من هذا القبيل غزيرة ومعروفة لدى المختصين، ولكننا أردنا فقط أن نلمح بطريقة غير مباشرة إلى أن كل تركيب لغوي له ما يؤصله ويحال عليه، وعلى المتكلم أن يلتزم بهذا، وله الحرية في التعبير مع التنظيم والترتيب للعناصر فيما بينها وبين نفسها وبين المجموع، إلا أن هناك علاقة نسبية فقط، وليست مطلقة، بين المرسل (بكسر السين) واللغة والمرسل إليه، كما أن المتكلم حرٌّ في كل خطاب لكن حرّيته أكثر من المتلقي المقيد سلفاً بنص معطى، وهذه القيود تتعدد وتتعدد كلما تعددت وتعقدت أجناس كلامية.

ولربما كانت حرية المتكلم السانتكسية في موقفه إزاء إنتاج نصي معين في حد ذاتها متفاوتة وبذلك يتعدد المتكلمون أنفسهم تبعاً للجنس النصي، فيكون الناثر أكثر حرية في التعبير والبناء

1. طبقات الشعراء، ابن سلام 17/1.

2. نفس المرجع، ص. 16.

من الشاعر، ويكون الشاعر الملتزم بالعروض والقوافي أقل حرية من شاعر آخر لا يلتزم بالعمود الشعري، وكم أعجبنى قول ابن سلام الجمحي القريب من هذا المعنى: «والمنطق على المتكلم أوسع منه على الشاعر، والشعر يحتاج إلى البناء والعروض والقوافي، والمتكلم مطلق يتخير الكلام»¹.

وإشارتنا السابقة إلى أن لكل جملة ما يوصلها وتحال عليه، لا تتعارض مع ما ذهبت إليه بعض التحاليل اللسانية المعاصرة، من ذلك أن تشومسكي يفترض دائماً ما يسميه بالمتكلم البلدي أو الأصلي (locuteur indigène) لقبول جمل مولدة أو رفضها: «إن الهدف الأساسي للتحليل اللساني للغة "ل" هو فصل السلسلات النحوية التابعة لجمل لغة "ل" من السلسلات النحوية التي هي ليست من جمل لغة، ثم دراسة بنية السلسلات النحوية، إن قواعد "ل" ستكون هكذا وآلية (mécanisme) مولدة كل السلسلات النحوية، أما وسيلة اختبار معادلتها للقواعد المقترحة للغة "ل" فهو أن نحدد فيما إذا كانت السلسلات المولدة هي حقيقة نحوية أو غير نحوية، بمعنى أنها مقبولة من قبل متكلم بلدي»².

والجملة الأخيرة لتشومسكي قد تبرر أحد مواقف عيسى بن عمر الذي انتقد النابغة الذبياني حين رفع سين السم في قوله:
فبت كأي ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع
وشين الشهد في موضع آخر، مع أن هذه اللهجة علوية³.

1. نفس المرجع، ص. 56.

2. Noam Chomsky, *Structure Syntaxique*, p. 15.

3. طبقات الشعراء، ابن سلام 16/1.

لكن مشكل السانتكس المعاصر يبقى دائماً مطروحاً، على عكس السانتكس التقليدي الذي قام بحل أعظم مسألة في اللغة الإنسانية لأن هذا السانتكس لم يفكر في تمزيق القيود التي ترتبط متزامنة مع الإنسان يحويها ويخترنها عبر الزمن فضلاً عن أنه يتلفظ ويتواصل بها، بينما السانتكس الجديد يحاول أن يتحرى العلاقات المختلفة التي تنظم الملفوظات (les énoncés) كلغة نهائية أو حتى توليد جمل غير نهائية ثم عرضها أمام التجربة اللسانية أي على المتكلم البلدي أن يقبلها أو يرفضها.

إلا أن تشومسكي لم يجب عن كثير من المسائل السانتكسية التي تركها معلقة (en suspens) مثل اشكالية السلسلات أو التتابعات النحوية هو نفسه طرح سؤالاً حولها، لكنه لم يعطنا جواباً ملموساً أو مقنعاً: «على أي أساس نميز فعلياً السلسلات النحوية من غير السلسلات النحوية؟ لا أحاول أن أعطي هنا جواباً كاملاً لهذه المسألة، لكنني أحب أن أشير إلى أن الأجوبة الكثيرة التي تأتي فوراً إلى الذهن لن تكون صحيحة، أولاً من الواضح أن مجموعة الجمل النحوية يمكن ألا تكون مشابهة لأية مدونة (corpus) خاصة للملفوظات المجمعّة من قبل لساني في عمل تحقيقه»¹.

إننا نفضل ألا نتعمق في هذه النقطة إلا بتخصيص حيز مستقل للسانتكس العربي القديم وتذييله ببعض التحاليل اللسانية الأخرى، وهو ما سنحاول إثارته في الفصل التالي.

1. Noam Chomsky, *Structure Syntaxique*, éd le Seuil, 1969, p. 17.

في السانتكس العربي القديم

ربما أجد من الفائدة بعد عرضنا لما ورد باختصار وتركيز، أن ألمح إلى وجوب تمييز السانتكس العربي كغيره من البنَى اللغوية العامة ما قدم منها وما حدث، حيث يكون منهجًا عامًا أو نظرية فردية، ... وحين يكون موضوعًا مرتبطًا باللغة، بحيث لا يبقى إلا الممارسة والوصف أو العرض والتحليل، بمعنى آخر من واجبنا أن نغوص في معرفة ما نعمل قبل أن نعمل لتفادي ما أمكن الخلط بين التراكيب أو النصوص،... وبين الأحكام التي لا تكاد تنتهي، والتي قد تزيد الموضوع تراكمًا على تراكم دون طائل.

وحيث إنه من المستبعد أن يحيل قارئ في حقل علمي أو شبه ذلك على الصفر، فإنه لا بد من تكرار الإشادة بتلك النظريات العربية المبكرة التي تعاملت في أول أمرها مع موضوعها الجامع

لعدة مدونات مختلفة انطلاقاً من الصفر أي التأصيل، إلا أن هذا التأصيل ما كان ليعود إلى تلك الرؤى التي تحولت تدريجياً، وفي زمن قياسي في قصره، إلى نظريات سانتكسية خاصة ولسانية عامة، لولا طبيعة الموضوع.

كانت تلك التراكمات العربية الشفوية السليقية محكمة في نسجها متقنة في بنيتها، ذات سعة مذهلة في حقيقتها ومجازها،... الأمر الذي جعل السانتكسيين العرب الأولين يختصرون الزمن بفضل الإدراك العلمي السريع الذي كان يطبع الفضاء العربي الإسلامي في كل الميادين الباقية خلال تلك الفترة الروحية المبكرة.

إن اللغويين العرب الرواد :

1. تعاملوا أول ما تعاملوا مع اللغة كإعلام لساني خارجي أت من باث أو متكلم نحو استقبال داخلي مؤسس على الإدراك الحسي من جهة والملكة اللغوية العامة المتبادلة بين كل من المتكلم والمتلقي من جهة ثانية، ويجب أن نركز على هذه النقطة الإعلامية من الآخر نحو الأنا، والتي كثيراً ما أهملت ونحن نتحدث على نشأة السانتكس العربي القديم (إعلام أسلوبية، معجمي، مورفولوجي، صوتي (فونتيكي) سانتكسي، خطاب عام، خطاب خاص، تركيب لغوي فصيح، لهجي،...)
2. تعاملوا مع الرسالة الإعلامية الملتقطة (سماع، رواية...) كلغة (comme un langage) وليس كلغة بمفهوم (langue) أو لسان، إن أرضية السانتكس العربي القديم مؤسس أولاً على

ظاهرة الكلام (parole) ثم على ظاهرة اللغة كمنظومة كلية. حتى الأخطاء التي وردت في جمال وتراكيب والتي عدت مرذولة ومطرحة في منطق المعيارية الصارمة كانت، فيما نرى، أكبر حافز في إدراك ما غدا يدعى اليوم بالانزياح أو العدول (écart) تارة أو الشعرية (poétique) تارة أخرى (في بعض المصطلحات) إن العدول اللغوي كان مهماً إلى درجة أنه كان عاملاً من عوامل فك أو تحليل البنية السانتكسية السليمة من الفاسدة.

3. تعاملوا مع التراكيب الملتقطة كفضاء من القواعد في غاية التحديد.
4. كثيراً ما أرهقوا أنفسهم في البحث والتحري لإيجاد متطابقات سانتكسية (équivalences syntaxiques) مؤدية أو متبادلة نفس الوظيفة أو متشابهة في ذلك، ولست بحاجة إلى التدليل على هذا والقراءات القرآنية مصدر ثري، ومن هذا ما يروى عن يونس بن حبيب أن ابن أبي إسحاق كان يعرف وجهاً لرفع "مجلف" في قول الفرزدق :

وَعَضُ زَمَانُ يَا ابْنَ مِرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مَجْلَفًا

بينما قال أبو عمرو بن العلاء : إنه لا يعرف لهذه الكلمة وجهاً، ومثله يونس ابن حبيب، وفي رواية أخرى أن أبا عمرو خاطب الفرزدق : «أصبت، هو جائر على المعنى، على أنه لم يبق سواه»، أي أن أبا عمرو المعروف بتساهله مع النصوص الموثوقة والعرب بشكل عام في تعابيرهم كان يعرف للرفع

1. الموشح، المرزباني، ص. 161.

معادلة سانتكسية ما على المعنى لم يفصح عنها لأنها يجب أن تفسر ببنية عميقة، بمعنى أن هذا العالم تعامل مع الفرزدق كمتكلم ومع تركيبه ككلام (comme une parole)، وليس مع الفرزدق كشاعر ولا مع تركيبه كلغة أو كنظام (système) من العلامات ملك (appartenant) لجماعة لسانية.

5. لم يتعاملوا مع السانتكس كتركيب متوقع (prévisible) بل كإنتاج مادي بني وانتهى، هذا في العملية الأولى، ثم أدركوا تكرار الظاهرة فنظروا إلى السانتكس كجمل متوقعة وغير منتهية لكن هذه التوقعيات السانتكسية يجب أن تخضع لقاعدة نموذجية عبر عنها الزجاجي فيما بعد بـ «العلل التعليمية بقوله: «فأما التعليمية فهي التي يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب، لأن لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها منها لفظاً، وإنما سمعنا بعضها ففسنا عليه نظيره، مثال ذلك أنا لما سمعنا قام زيد فهو قائم، وركب فهو راكب، عرفنا اسم الفاعل فقلنا ذهب فهو ذاهب، وأكل فهو آكل وما أشبه ذلك...»¹، وإذا كان الزجاجي قد اكتفى بالإشارة إلى الجمل النحوية، ولم يشر إلى غير النحوية فلأن ذلك كان عندهم من قبيل العبث، وليس معنى هذا أن العرب القدماء لم يفطنوا إلى هذا الشكل من التوليد الصوري الذي بنى عليه تشومسكي نظريته السانتكسية لكن الأهم أن اللغويين العرب قد أدركوا بشكل أو بآخر أن المنظومة اللغوية شكل غير منته من الجمل، وأن المتكلم الأصلي يعرف النحوية من غير النحوية والمقبولة دلاليًا من المرفوضة.

1. الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، ص. 64.

6. على ضوء هذه التعاملات المبكرة، صار الناس من عرب متأخرين (حسب المدينة أو البادية) وعجم متقدمين يتعاملون مع السانتكس تعاملًا أقرب إلى الملاحظة العلمية منها إلى كلام سليقي قائم على العفوية والشفوية، ثم كان التعامل مع المنظومة اللغوية بشكل عام، وأخيراً، وهو الأهم : التأليف والنص.

وهذه الإنجازات العقلية سبقتها إنجازات طبيعية تتصل بالموضوع ذاته، إن الدراسات السانتكسية انطلقت من نهاية أوج ما انتهت إليه الصنعة الكلامية عند العرب، والتي لفتت أنظارهم إلى بناها السطحية وطرائق تشكيلها.

ولذا فإننا نؤكد على الطاقة اللغوية الكامنة في كل لغة، وإذا كان هناك تفاوت محتمل أو حتمي بين لغة وأخرى، فإن ذلك لا يعود إلى الهدف المشترك والوحيد الذي يختص بالتواصل الإنساني من خلال بنيات سانتكسية، وهذا ما يفرق لغة الإنسان عن لغة الحيوان أو الحشرات المزعومة، ولكن في البنية السانتكسية التي تستقل بها لغة دون أخرى حسب خصائص داخلية صارت جزءاً من دليل الخطاب وعادات التكلم لدى أصحابها.

إن ما قد يكون غامضاً في لغة كالفرنسية مثلاً ليس ضرورة أن يكون كذلك في لغة كالعربية فجملة :

(Les enfants ont regardé les fleurs de la fenêtre) يسودها

الغموض في الفرنسية، إذ هل :

— الأولاد شاهدوا الورود من النافذة.

أم

— الأولاد شاهدوا ورود النافذة ؟

في حين أننا في العربية إما أن نقول :
 — شاهد الأولاد أو الأولاد شاهدوا الورود من النافذة.

أو

— شاهد الأولاد أو الأولاد شاهدوا ورودَ النافذة.

وليس معنى هذا أن العربية منزهة من مثل هذه الغموضات، ولكن البنيات السانتكسية ليست متطابقة بنظام بين كل لغة وأخرى، وفي الوقت نفسه ليست اللغة مسؤولة بطريقة بنيوية مباشرة على الغموض في هذه الجملة أو الوضوح في تلك، فهذا وهم تأملي أو ميتافيزيقي كثيراً ما يعزى إلى اللغة وكأنها "كائن حي"، إن ظاهرة الوضوح أو الغموض إنما تتجم من جراء الفرد المتكلم الذي يحسن أو يسيئ استخدام أو توظيف المواد أو الموارد التي توفرها له اللغة، ثم إن الغموض أو الوضوح في بنية سانتكسية ينعكس في ذهن المتلقي الذي قد يعجز إدراكه الحسي عن فكّ أو تحليل الخطاب الذي يكون مرجعه المتكلم كجزء لا اللغة ككل.

إن المطلع على هذا السانتكس بعد قراءة أيا كان نوعها ومنهجها ليدرك سريع الإدراك بأنها صيغت وشكلت انطلاقاً من تلك الحياة العربية كمشائل ثقافية (comme des semences culturelles) بيد أن تلك القواعد الصارمة كانت ذا ميل قوي إلى الطابع المنطقي بصورة عفوية غير تأثيرية من أي عامل خارجي مؤكد، كانت تخضع عن رضى أو كره، اللغة — كإنتاج فردي كلامي — إلى هذا القانون، ولم تعد تسمح للمتكلمين للتلفظ بأية طريقة سانتكسية أو مورفولوجية أو معجمية... شاءوا، وصارت اللغة العامة هي المعيار

العام لكل الأفراد ولا سيما على مستوى الخطاب الرسمي، ولم تعد فترة تقعيد القواعد تحتمل ما احتُمِل من قبل في غياب القواعد العلمية إلا القواعد السليبية، من هذا ما رواه خلف الأحمر بأن رجلاً أو شيخاً من أهل الكوفة قال له : "أما عجبت من الشاعر قال :

أُنْبِتَ قَيْصُومًا وَجَنْجَانًا

فاحتمل له، وقلت أنا :

أُنْبِتَ إِحْصَاءً وَتَفَاحًا

فلم يُحتمل لي ؟¹ وأردف ابن قتيبة قائلاً : «وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا»². وأما الخليل بن أحمد فقال من جهته : «أنشدني رجل :

ترافع العز بنا فارقنعا

فقلت (الخليل) : ليس هذا شيئاً، فقال : كيف جاز للعجاج أن يقول :

تقاعس العزينا فاقعنسا

ولا يجوز لي»³

وحاول الفقلخي (فقيه اللغة) هنري فليش (Henri fleisch) أن يوضح بعض الخصوصيات لهذا السانتكس في مبدأين : أولهما أن نميز قوة عمل الجر والنصب، أحدها قوي وآخرها ضعيف، ببساطة هناك أشكال قوية وأشكال ضعيفة، الشيء الذي كان يمكن من وضع اتباعات، مثلاً، نصب الأفعال معتبر كقوة، لكن

1. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص. 16.

2. نفس المرجع، ص. 16.

3. نفس المرجع، ص. 16.

الأدوات تعتبر ضعيفة بالنسبة للاسم يعتبر المفرد في الدرجة الأولى وأكثر قوة، بينما الجمع هو أكثر ضعفاً، كان بإمكاننا أن نضع الأصول والفروع (Les principes et les conséquences)، إن القوائم الموضوعية كانت تمكن من إظهار الرتب التي كان يجب للكلمات أن تحتلها في الجملة (رتبة مرتبة) كل كلمة كان يجب أن تحتل رتبها كانت تملك دوراً لأدائه (حكم) وكان لها حق لتمارس حقوقها في نطاق ما يسمح لها بأداء الدور.

أما ثاني هذين المبدئين فيبدو في مفهوم أو تصور (concept) الشبه (ressemblance) وتنوع الفرق، بوجه آخر فإن الشبه الجزئي يمكن من إقامة علاقات بين الكلمات المختلفة وإنشاء أصل وفرع (original et conséquence)¹.

أما جيرار ليكومت (Gérard Lecompte) فإنه في دراسته الوصفية يحصر السانتكس العربي في أربعة محاور².

1. السانتكس الاسمي (syntaxe nominale)

2. الجملة الاسمية (phrase nominale)

3. الجملة الفعلية المستقلة (phrase verbale indépendante)

4. الجملة الفعلية المتمفصلة (phrase verbale articulée)

ويقصد بالنوع الرابع :

1. Henri Fleish, *Traité de philologie arabe*, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1967, p. 6.

2. Gérard Lecompte, *Grammaire de l'arabe*, p. 91-123.

أ – الجملة المجاورة أو المتجاورة (Juxtaposition)

ب – الجملة التابعة أو الإبتاعية أو الثانوية (Subordination)

ج – الجملة الشرطية (hypothèque)

إذا تعاملنا بنيويًا مع اللغة كقوة خارجية فإنها قانون اجتماعي بين أعضاء مجموعة، وإذا تأملناها بنيويًا كقوة داخلية فإنه لا دخل لعوامل نصب أو جر أو رفع في قوة هنا وضعف هناك، إن المنصوب (هنا الاسم) قد يكون واحدًا والعوامل مختلفة، وكذلك المرفوع والمجرور.

إن نظرة الفقلغي هنري فليش لا شك أنها كانت تغلب عليها فكرة شليجل بأن اللغة منظومة حية أي كأنها ظاهرة بيولوجية يتعامل معها اللساني مثلما يتعامل عالم الطبيعة مع الحياة.

إن اللغة أبعد من أن تكون منظومة من هذا القبيل، فهي لا تملك الإرادة حينًا واللاإرادة حينًا آخر كأعضاء جسم أو كائن حي، كما أن أعضاء منظومة بيولوجية أبعد من أن تشبه بوظيفة عناصر لغوية في أي علاقة أو وظيفة سانتكسية، وإذا كان لا بد من قوة مفترضة فإنما تلك القوة تتوزع بشكل متداع وضمني تحت البنى السطحية، وحتى ما أسماه العرب بـ "الفضلة" لم يعد مقبولاً إذا أقررنا بقوة كل من المسند إليه والمسند دونها، إن "الفضلة" إذا لم تعتبر أساسية بنفس منزلة المسند إليه والمسند فلأن فضاءها الدلالي قد يشترك في ذهن المتكلم والمتلقي على حد متقارب من مساواة منطقية، فمن هنا بدت قلة أهميتها :

المسند إليه	المسند	الفضاء الدلالي
القاضي	يعاقب	الجاني ؟
الحكم	—	اللاعب ؟
الضابط	—	الجندي ؟
المعلم	—	التلميذ ؟
القانون	—	المزور ؟
الشمس	تطلع	من الشرق ؟
الشمس	تغرب	من الغرب ؟
الشمس	تحجب	من الغمام ؟
الشمس	حارة	في الصيف ؟
الشمس	ضعيفة، فاترة	في الشتاء ؟
الجو	معتدل	في الربيع ؟
الجو	بارد	في الشتاء ؟
.....

وهذا الفضاء الدلالي تقاطع لغوي مشترك بين المتكلمين على مستوى لغة واحدة وعلى مستوى أكثر من لغة، وهو كما نلاحظ من الجدول الاعتباطي أعلاه اعم في الفضلة منه في المسند فضلا عن المسند إليه لأن وظيفة القاضي ليست فقط العقاب، كما أن المعلم مثلما يعاقب تلميذه قد يجازيه، والضابط قد يرقى جنديه،... لكن المسند سواء تقدم أم تأخر في السانتكس العربي، هو الذي يوحى للمتلقين الفضاء الدلالي العمومي للتركيب، ولذا فإن أهمية التقديم والتأخير لا تأثير لها على البنية السانتكسية في اللغة العربية من مثل هذه التراكيب.

ومقابل هذا، فإن الغموض يبقى سائداً هذا الحقـل بالنسبة لتوزيع الأدوار للعناصر المتقاطعة سانتكسياً ودلالياً

ومورفولوجيا، إن النحويين مثلهم مثل المنطقيين يقولون بأن المسند يخبر عن المسند إليه، وإذا مثلنا بالحديث :

«خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» ثم وزعنا عناصره هكذا :

المسند إليه	المضاف إليه	المسند	المضاف إليه	الجار	لمجرور	البنية
1. خير	كم	خير	كم	—	—	غامضة
2. خير	كم	خير	كم	لـ	أهله	واضحة
3. وأنا		خير	كم			أكثر غموضا
4. أنا		خير	كم	—	أهلي	إزالة الغموض

فإننا نرى أنه لا المسند يكون دائماً خيراً موضعاً ومزياً لغموض المسند إليه، ولا ما سمي بـ "الفضلة" هو فضلة بالمعنى الجوهري والوظيفي في السانتكس العربي.

جملة (1) كان المسند توكيد للمسند إليه، وجملة (2) بفضل "الفضلة" صارت ذات دلالة كلية، وجملة (3) كانت أكثر غموضاً إذا كنا نجهل المرجع أو المرسل (بكسر السين). أما جملة (4) فإنها تعادل في وضوحها جملة (2) باعتبار البنية السانتكسية المتشابهة ثم إن العناصر الموظفة فيهما قامت بنفس الدور الوظيفي فعلى اللسانيات العربية الجديدة أن تجتهد في إيجاد مخرج تنظيري وعملي لا تحليلي فقط لهذه الإشكالية التي مازالت تسود كثيراً من تراكيينا اللغوية.

إن التحليل اللساني الحالي للعبارة أو القول يتعامل مع المرسل تبعاً لما يؤديه كل عنصر أو كلمة من وظيفة، والسانتكس العربي القديم كان يقوم على التحليل النحوي الكلي للأدوار التي تؤديها

الكلمات التي اكتسبت دلالات علمية جديدة، إلى جانب الوحدات النحوية المستقلة التي كُسيّت بمصطلحات غير أن ما ينبّه عليه هنا أن الدرس اللغوي القديم عند العرب كانت عنايته مركزة على التركيب في ذاته أزيد مما انصبت جهوده على التحليل، لأن هدفه كان بناء وتشبيهاً لقواعد وليس تحليلاً لها، لكن التحليل كان يسبق البناء من خلال التعامل مع المعطيات اللغوية الجاهزة سلفاً، واعني بها الخطاب الشفوي على وجه الخصوص.

وعليه فإن تلك التحاليل كانت تفرض مسبقاً بأن أي نوع خطابي إلا وكان يملك وظائف سانتكسية مختلفة كامنّة تحت البنى السطحية، وهذه العملية في التعامل مع اللغة من الخارج باعتبارها خطابات شفوية، ومن الداخل باعتبارها منظومة قائمة بذاتها أي متميزة عن باقي الظواهر والعلوم الأخرى، هو ما تذهب إليه أحدث المقاربات اللسانية المعاصرة حيث نجد أن «اللساني يستند على مجموعة الأقوال أو الملفوظات المحققة : إنها المدونة، هو يحاول انطلاقاً من هنا أن يؤسس قواعد هذه المدونة مستعملاً ما يتجلى منها من القواعد القياسية التوزيعية لعناصرها المؤلفة لها. إن اللغة في الواقع مكونة من عناصر متميزة أو قائمة بذاتها والتي تتركب فيما بينها بمختلف المستويات لتكوين وحدات مستوى أعلى : المستوى الفونيمي المورفولوجي، السانتاغمي (syntagmatique)، الجملي (phrastique)، هذه الوحدات الاعتبائية والتي تعدادها منته، لا تتركب كيفما آتفق : كل لغة تحدد لأي مستوى نظاماً من الإجازات (contraintes) وقيوداً (restrictions) لإمكاناتها التركيبية»¹.

1. J. L-Chiss, Fillidlet, D. Mainguenu, *Initiation à la problématique*, Hachette, Paris, T2/7.

الجزء الثاني

وجهات نظر لسانية في اللغة والادب

طرائق ومراحل الاكتساب اللغوي

إشكالية لغوية تاريخية

حينما يريد الباحث أن يعرف ماضي لغته التي وجد عليها آباءه يتكلمون، أو لغات غيره، بحيث يكون مدرّكاً ماضيها وحاضرها وما طرأ عليها من تطور — إن كان هناك تطور مزعوم — أو تغيير، مذ عرفت في أقدم زمانها البعيد، لا يكاد يظفر بأولية نشأتها واقتفاء آثارها في جميع الحالات، لأنه يصطدم بأنها سلسلة لها بداية مجهولة، ولكنها في ذات الحين سلسلة لانهاية لها من وقائع الماضي المطموس، إلا ماضي الخرافات والأساطير، وحتى هذا الماضي ليس غريباً كل الغرابة، لأن ظاهرة اللغة في ذاتها أسطورة، وليست فقط قصة منسوجة، باعتبار الأسطورة كل ما لا يستطيع الإنسان أن يجد له تفسيراً تجريبيّاً خارج الواقع، إلا أن اللغة تظل مع ذلك أعظم أسطورة

خالدة وليست فقط أسطورة عرضية مرتبطة بحدث أو زمان أو مكان. الأولى، حتى ولو كانت مرجحة هي نفسها السامية الأم،... ولكن الدارسين يحارون حين يهتمون بعزو هاتين الشجرتين الأخيرتين إلى أبعد من هذا، ومما يزيد الباحث حيرة تأكده من أن اللغة، على ما يحيط بها من تفسيرات ميثولوجية كأي ظاهرة اجتماعية، لم تولد من عدم، بل ولدت في أحضان المجتمع البشري يوم أحس اجتماعيًا وفطريًا بالحاجة إليها.

اشكالية اجتماعية

وكثافة مجتمع من الناحية الديموغرافية لا تزيد لغته إلا نموًا واتساعًا لأن كل طفل يمثل جزءًا من لغته السابقة عليه وجودًا: زمانًا ومكانًا، إذ كل وليد يطرأ عليه بعد ولادته تحول فزيولوجي فتنحول أصوات بكائه وإيماءات أصابعه إلى كلام بشري من نفس جنس بيئته نشأته وتربيته لا ولادته - بالضرورة، «بكلمة مختصرة، فإن المشي وظيفة بيولوجية ملازمة للإنسان، وليس نفس الشيء بالنسبة للغة (langage)، لاجرم أن الفرد إلى حد ما مُعدّ كذلك إلى التكلم، لكن هذا ليس مرده كليًا إلى أنه ولد فقط في أحضان الطبيعة، لكن في وسط المجتمع الذي يتبنى بصورة أكيدة تقاليدها، أقص المجتمع، فإنه من المعقول أن نعتقد مع ذلك بأنه سيمشي، مفترضين كذلك بأنه سيعيش، لكنه من المؤكد أنه لن يتعلم أبدًا التكلم، بمعنى أنه يبلغ أفكاره حسب نظام تقليدي لمجتمع خاص، أكثر من هذا، اعزل الفرد الذي يولد جديدًا في وسط اجتماعي حيث يوجد وازدرعه في وسط آخر وهو غريب عنه

تماماً، سيتكون له فن أو مهارة المشي في هذا الوسط الجديد تقريباً كالذي كان يتعلمه في الوسط القديم، لكن كلامه سيكون مختلفاً كلياً عن كلام محيطه الأولي»¹.

ولا يزال الخلاف مثاراً والتساؤل مطروحاً حول إشكالية لغتنا : أهي تكتسب اكتساباً كالملاكات والمهارات الفنية والثقافية والصناعية أم هي شيء غريزي فينا ؟ فلو كانت اللغة فطرية غريزية فينا لكان بوسع كل وليد أن يتكلم لغة تختلف عن لغة أسرته وما يتبعها من نظم وقواعد باعتبار كل مولود يولد على الفطرة.

ما تقول به بعض النظريات اللسانية

يذهب إدوارد ساپير إلى أن «الكلام وظيفة غير متولدة عن غريزة (non instinctive) بل هو مكتسب، ووظيفة ثقافية»². أي ينبغي أن نفرق بين غريزة حركة المشي مثلاً، والمعدة فيه منذ ولادته بل حتى منذ لحظة الحبل والتي هي ليست إرادية وليس لها أي هدف مُبين، وهي تنتقل من الفرد إلى الفرد، بينما لغتنا تترسخ فينا من الجماعة إلى الجماعة بشروط ثقافية مبيّنة ذات دلائل تاريخية أو نشاطات إرادية آنية تخص الخلق والإبداع ما بعد مرحلة التكلم : «إذا كان من الممكن إذاً أن نقيم الدليل فإن اللغة (langage) كلها ترجع في أصولها الجوهرية التاريخية أو البسيكولوجية إلى التعجبات أو النداءات (interjections)، فإن هذا

1. Edward Sapir, *le langage*, Petite Bibliothèque Payot, Paris, p. 7-8.

2. نفس المرجع، ص. 8.

لا يعني القول بعدُ بأن اللغة هي نشاط غريزي، لكن في حقيقة الأمر، أن كل المحاولات لتفسير أصل الكلام هكذا تبقى بدون طائل، لا توجد حقيقة ملموسة سواء كانت تاريخية أو غيرها لإقامة دليل على أن كتلة عناصر الكلام وأنساقها اللسانية تطورت انطلاقاً من هذه الأصوات وذا أهمية ضئيلة من وجهة نظر الوظيفة»¹.

لا أحد يستبعد اليوم بأننا نكتسب لغتنا عن طريق المحاكاة والتقليد. إننا وجدنا أنفسنا هكذا نتكلم لغة عامية نتواصل بها في أحضان مجتمع بدوي أو حضري، ونقضي بها مآربنا اليومية دون أن نجد متنفساً أو ضرورة ملحة لتعريف كلامنا أو التساؤل عن أصله وفصله، ولم نتعلم لغة منفصلة عن أحد مستوياتها، إننا اكتسبنا هكذا لغة تواصلية كاملة لكننا لم ندر في أي سنة صرنا فيها مطبوعين على هذه اللغة العامية وفق تقاليد مشروطة في أساليب بنائها الذي يتنوع بتنوع الغرض والوظيفة.

إن النظريات الحديثة تذهب اليوم إلى أننا تعلمنا لغتنا الأبوية منذ نعومة أظفارنا، وأن اكتسابها كان سريعاً جداً، وأن الصيغ الأكثر اعتيادياً كانت قد عرفت منذ سن الخامسة، أما قبل الخامسة، فإن وضع «اللغة الأبوية في مكانه قد تم أساسياً بواسطة المحاكاة: الطفل يكرر ما أمكن بدقة الصيغ التي تنطق أمامه، ينتهي بتحصيل ذاكرة سمعية رحيبة ومرنة بشكل مدهش، إن اللغة التي يحاكي هي لغة الكبار الذين يتواصل معهم، وبخاصة لغة أبويه»².

1. المرجع السابق، ص. 11.

2. Jeant Guenot, *Les langues vivantes*, éd Seghers, Paris, 1971, p. 19-20.

لكن الإشكال المطروح لا يحيط بالاكتساب اللغوي أو حتى كلفيته فهذه المسألة أثرت عند العرب والأجانب القدماء وبتّ فيها بشكل يكاد يكون مقنعاً، لكن الإشكال المطروح في حضور الوعي الإنساني أو غيابه خلال هذه العملية المبكرة من الاكتساب اللغوي الطبيعي، ثم هل الفرد يكتسب وهو يتواصل ويوظف في الوقت نفسه أم لا يحصل له هذا الاكتساب إلا بعد توصلات "بيضاء" (communication blanche) مع الآخرين أو ممن يتصورهم أنهم آخرون؟

إن أندري مارتيني المولع بـ "التجربة" و"التمفصل المزدوج" (double articulation) يقول: "لفهم جيداً كيف أن اللغة يمكن أن تعرف كتمفصل مزدوج، يجب أن تقتنع بأن الوظيفة الأساسية للغة الإنسانية هو إن تمكّن كل إنسان للتواصل مع نظرائه بتجربته الشخصية"¹. ثم يردف قائلاً: «إن التجربة كما هي لنقلها إلى الآخرين قبل أي مجهود، لا تلتقط عبارة من الكلمات، تجربة نموذج مباشر جداً كوجع فيزيائي يمكن جيداً من الفهم كيف أن اللغة تدخل اللعبة، رد الفعل الصوتي للوجع يمكن ألا يكون سوى انعكاس صرف وعادي، نخير، صياح، بدون شك أن هذا النخير أو التذمر أو الصياح يمكن ألا يكون مُراداً، فهو يؤدي إذاً إلى تبليغ شيء، لكن هذا التبليغ ليس له طابع لساني:

القطط ترسل بواسطة مواءاتها، في الوقت الذي لا يوجد فيه طرح لرؤية فعل للغة في هذا المواء، يوجد فعل للغة عندما نمر

1. André Martinet, *La linguistique synchronique*, Presses universitaires de France, 1974, p. 9.

من تجربة متجانسة (homogène) وغير محللة إلى اختصارها في سلسلة من المقاطع الصوتية المحددة، كل واحد من هذه المقاطع يمكن أن يستعمل لإرسال التجارب الأخرى التي تختلف إطلاقاً مع الجميع... إذا قلت مثلاً :

- عندي وجع في رأسي (J'ai mal à la tête)

فإنني أستخدم ستة مقاطع، يعني ما هو آت : (tête, la, à, mal, ai, je) كل منها يمكن أن يوجد في سياقات مختلفة تمام الاختلاف لإرسال تجارب مختلفة كل الاختلاف¹.

نحن واعون بأن هذا اللساني يحاول أن يعرف اللغة وكذا اكتسابها من خلال نظريته، وهو تعريف لا يخلو من سمات علمية وأحكام منطقية وأن لا أحد اليوم بحكم التجربة الإنسانية البسيطة ألا يذهب إلى ما ذهب إليه هذا اللساني، غير أن الموقف النهائي من هذه المسألة يظل غامضاً لدينا، لأنها مسألة شائكة.

الاكتساب اللغوي اكتساب لا واع

ما هو النمط أو النموذج اللغوي الذي نريد أن نفصح عنه ؟ لا شك أن هناك نماذج لا حصر لها بالنسبة للغة، ما عدا القواعد السانتكسية، وحتى في هذه الحالة، فإننا نتكلم عن أنفسنا أزيد مما نتكلم عن غيرنا ممن سبقونا أو ممن سيأتون بعدنا، لأننا في هذه الحالة التي نتأمل فيها لغتنا ناضجة أو على الأقل قادرة على التبليغ وفق قنوات مضبوطة، فإننا ننطلق سلفاً من منظومة مثالية

1. نفس المرجع، ص. 10.

لا يبقى إلا الاقتداء أو التقليد، فنحكم على الوليد في وسطنا بأنه فرد مقلد منذ أول خطوة في حياته.

أظن أن اللغة معرفة من المعارف يكسبها الفرد في مراحل غير واعية في كبره لا في طفولته، إن الكبير لا يدرك معرفة الصغير، لكن الصغير يدرك معرفة الكبير وبالتالي فإن الصغار يحسون بلغة الكبار عن وعي شبه غائب أو صعب حازه بالنسبة للكبار، بينما الكبار يشعرون بلغة الصغار عن وعي شبه حاضر أو مفترض بالنسبة للصغار، وكلما تدرج الطفل تنمو معه تلك المعرفة موازاة مع غياب متداع مستمر في لغة الكل المتقدمة على وجوده زمانًا ومكانًا، ولن يبقى له بعد مرحلة معينة من المعرفة سوى اقتناء الخطاب كسائر أفراد مجتمعه.

ثم من غير شك أن هناك فرقًا شاسعًا بين أن يكسب الفرد لغة بواسطة السماع والخطابات الشفوية، وبين أن يكسبها عن طريق الرؤية أو المخبر والنصوص المكتوبة، وهنا يجب أن ندخل في الاعتبار ما هو تطبيع. ولعل ثمت فرقًا أشجع يتجلى في نوع اللغة كلغة خطاب بدائي لا تقوم لها قائمة بدون سواها، ولا سيما تلك التي ليس لها أي اثر حضاري أو فكري عبر تاريخ الإنسانية الطويل وبين لغة مفعمة بالتجارب اللسانية والأدبية والعلمية وسعت حضارات أممية وأفكارا عالمية ورسالات سماوية. لسنا هنا عاطفيين ولا مثاليين، ولكنها الحقيقة العلمية، ولكننا في الوقت نفسه نلتزم بالمبدأ العام للاكتساب اللغوي الذي يبقى مع ذلك محاطًا بأشباح من الأفكار، كم كان بوجدنا لو لم تفرض نفسها

علينا، لأن اللسانيات المعاصرة من ناحية تريد أن تتجنب الخوض في أصل اللغة ونشأتها والظروف الأولى التي صحبت الإنسان أول ما تكلم، ومن ناحية أخرى تأبى إلا أن تتكلم مثلماً كانت الفقلغة تتكلم لكن بمنهجية تصفها بأنها صارمة.

مراحل الاكتساب اللغوي عند الطفل

على أي حال، ترى بعض النظريات اللسانية أنه يُمَيِّز كلاسيكياً بين مرحلتين من تنمية النشاط اللغوي : «الأولى ما قبل لساني (prélinguistique) وهي تعطي العشرة أشهر الأولى من الحياة تقريباً، يميز هذا النشاط التصويطي الاستهلاطات والاصطفاقات التي تكون تظاهرات تنفسية، ثم نحو الشهر الثالث يراقب الثغثغات (lallatios) التي تحتوي على إمكانيات من التعبير الصوتي الأكثر امتداداً من تلك التي ستستعمل في اللغة، الفترة اللسانية الثانية تبدأ في نهاية العام الأول الذي يشرع الطفل في إبداء عدة استيعابات (compréhensions) لتصرف التواصل لدى الكبير، خلال السنة الثانية يبدأ في تكوين نشاط لغوي مسلم به، إن اكتساب جزء من اللغة هو إذن ظاهرة سريعة جداً»¹.

وترى هذه النظريات أن «الطفل يجب أن يعين نوع المراتب وليس العناصر المتميزة... كان قيوم يلاحظ منذ سنة 1927 بأن الطفل يرتكب الأخطاء التي تشهد على تطبيق القواعد (خلق الأفعال مثلاً) هذا يطرح مشكلاً لمعرفة ما إذا كان الطفل يقلد أو

1. Oswald Ducrot, Tzvetant Odorov, *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, éd du Seuil, Paris, p. 202.

يتعلم لغة الكبار، ونحن نعلم من جهة أخرى بأن الإعادة الصرف والعادية لجملة لن تكون ممكنة إلا إذا كان شكل هذه الجملة يقابل ما يكون الطفل قادراً على إنتاجه عفويًا؛ وإلا فإن هذه الإعادة لن تكون صحيحة»¹.

الاكتساب اللغوي ظاهرة متماثلة بين كل اللغات

إن الاكتساب اللغوي عادة ما يكون جامعاً بالتدرج على مستوى مجموعة لسانية واحدة لا تدخل الاعتبارات الخارجية فيه إلا نادراً أو لظروف طبيعية أو أحداث غير متوقعة، هذا وسرعة أو بطء الاكتساب اللغوي هو أمر متماثل بين كل اللغات والمتكلمين ما عدا بعض الحالات الخاصة بكل لغة أو فرد متكلم : «هذه الوقائع تقود إلى اعتبار تعلم اللغة كإكتساب لمجموعة من القواعد ومحاولة لتكوين نحو طفلي (Grammaire enfantine) بداية من مدونة عفوية ومغرية... إن المشكل سيكون إذن في بحث ما إذا توجد علاقات نحوية مختلفة (بتعبير بنية الجملة) لبنيات دلالية مختلفة، إذا كنا نستطيع أن نبرهن على وجود بنية عميقة (structure profonde) لكل جملة، أكثر تعقيداً من البنية السطحية الموصوفة من قبل هذه القواعد فإننا على الأرجح سنتمكن من فهم أفضل لهذه المرحلة والتي خلالها، كما يبدو، يتناول الطفل العلاقات النحوية المعقدة (complexes) التي لا يعرف في هذه الأثناء التعبير به»².

1. المرجع السابق، ص. 204.

2. نفس المرجع، ص. 205.

والاكتساب اللغوي المتماثل في كل اللغات لا يعني التعميم، إذ كل لغة لها بنيتها الخاصة وطريقة توزيعها للأصوات والنبرات الحادة والموسيقية والخفيضة والرفيعة،... إلى جانب إيقاعاتها النغمية «الروسي الذي يجب عليه أن يتعلم الفرنسية يلاقي عقبات أخرى كصيني أو مصري موجود في نفس الوضعية، إن الأمر يتعلق هنا بمشكل اللسانيات الخارجية التي لا يمكن أن يكون لها حل كامل إلا في إطار سلسلة من الدراسات الخاصة»¹.

وهناك واجهة أخرى للمشكل تتعلق بمسألة معرفتنا أو جهلنا للغة خلال تعلمنا أو استعمالنا إياها : أيرافق هذه الاكتساب اصطحاب للقالب النموذجي الذي نكتسبه أم لا يرافق اكتسابنا إلا ضرب من اللاشعور بالمعرفة المرحلية التي تختلف عند الصغار عنها لدى الكبار بالنسبة للادراكات الآنية للحقائق الضرورية لكل المراحل المعرفية ومهما يكن فإن المقارنة بين مراحل تنمية الفكر المنطقي ومراحل الاكتساب للقواعد أو القوانين السانتكسية تبين في الحالتين اكتساب أنظمة لن تكون ثمرة لصورة مجهول لنموذج، والذي يقتضيه الدور من قبل الطفل،... والحالة هذه أن اكتساب قواعد سانتكسية تعد ناضجة قبل الأوان².

الاكتساب اللغوي محصول كلي

الأخرى، المسألة تتعلق بالكل، وتوضيحاً لهذا، فإننا لا نكتسب اللغة الأم من محيطنا مرحلياً، بحيث هناك مرحلة صوتية،

1. Pierre Delattre, *Les sciences structurales : pourquoi faire ?* p. 54.

2. Oswald Ducrot, Tzvetant Odorov, *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, éd du Seuil, Paris, p. 206.

ومرحلة فونولوجية، ومرحلة مورفولوجية، ثم مرحلة سانتكسية،... ثم تكون هذه القوانين كلها في مرحلة ثم تأتي المرحلة الدلالية أو العكس، وهذا خلافاً لما ادعاه شومسكي الذي تبنى فكرة كل من هاريس وبلو مفيد والتي ترى انه من الممكن وصف النحو دون اللجوء إلى المعنى، رافضاً معيار القواعدية القائم على وجود الجملة في نص¹.

مع أننا نعتقد، وبدون تردد، بأن الوسط الاجتماعي الذي يوجد فيه الطفل يعتبر أول نص متكامل له، وإذا كان الراشد لا يستطيع فضل قاعدة عن معناها إلا مثلما ينجز في النحو الصوري أو الرياضي والذي لا يعني شيئاً بالنسبة للواقع اللغوي والتواصل المادي أو الملموس، فكيف بفردٍ ناشيء لم يسلم السنة أو السننتين؟ إننا إذا كنا لم نتعلم في لغتنا الأم (هنا العامية) قواعد سانتكسية تصاحب العناصر أو الوحدات الدلالية فإننا من غير شك تعلمنا قواعد عفوية ما لا تزال إلى وقتنا غير مدروسة ولا مقننة.

الاكتساب وعلاقته بالسانتس والدلالة

وهكذا يظل الإشكال قائماً وبقوة حول تصورات أساسية مثلاً لإشارة أو العلامة باعتبار الطفل يعتمد على هذين العنصرين كثيراً، وحتى الكبير إذا اعتبرنا أن اللغة مجموعة من العلامات، اعتبارية الإشارة أو العلامة، وما الذي يرجع منها إلى اللغة، مما يرجع منها إلى الكلام، ثم الإشكال المطروح حالياً بيننا بالنسبة

1. علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان، ص. 207.

للاكتساب اللغوي والمتعلق بالعلاقات بين السانتكس والدلالة، بل حتى مفهوم المعنى (sens) دون أن نتكلم عن الاختلافات في المصطلحات : «بالإضافة إلى ذلك، طبيعة النشاط اللغوي لم نعرفه حتى الآن جيداً، أما أصلها فسيبقى دوماً لغزاً محيراً، لن يكون سهلاً إدراكه إلا عبر الأساطير باختصار لم نعرف منذ أي وقت بدأ الناس يتكلمون ولا كيف، إننا لا نستطيع إلا أن نحاول وصف وظيفة اللغات الطبيعية (langues naturelles)، أن نطوِّق من هناك المميزات الشمولية (universelles) للغة (langue) وأن نصوغ فرضيات حول العمليات المكتنفة بالأسرار التي وضعت المخ الإنساني موضع الفعل لتمكننا من التكلم»¹. ولعل نظرة المدرسة التوزيعية التي ترى إمكانية للوصف النحوي دون اللجوء إلى المعنى هو ما جعل شومسكي يميز أحياناً بين "الوصف اللغوي" و "الوصف البنيوي" حيث يتعامل الأول مع بنى سطحية «يجزئ وحداتها ويعدها ويصنفها وهذا يعني أنه يدرس علم الأصوات والفونولوجيا والمورفولوجيا، فيما يقوم الآخر "بوصف التحويلات" التي توصل إلى البنى السطحية»².

والنص أعلاه لا يعني الإقصاء بالجملة للعنصر الدلالي عند تشومسكي وهو الذي أكد على الجمل النحوية الدلالية وعقد لها فصلاً خاصاً في كتابه "البنية السانتكسية" (structure syntaxique) تناول فيه ما يصل الدلالة بالقواعد، وهو الذي صرح :

1. Marina Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, éd du Seuil, Paris, 1987, p. 15.

2. علم اللغة في القرن العشرين ص. 214.

«إن الجمل النحوية هي الجمل التي لها معنى (signification) دلالي»¹. وهو الذي أثار هذه الإشكالية قائلاً: «لا يوجد طابع للدراسة اللسانية التي تتيح لنا الخلط والتي تكون في حاجة أكثر لصيغة واضحة وحصيفة مثل الحاجة إلى نقاط الوصل (Jonction) بين السانتكس والدلالة، السؤال الحقيقي الواجب طرحه هو: «كيف أن الآليات (mécanismes) السانتكسية المقبولة شرعاً للغة معطاة توضع في الاستخدام الفعلي لهذه اللغة؟»، إن علاقات السانتكس والدلالة بكثرة قد سادت كمشكل ثانوي حيث فهم فهما سيئاً: هذا الشكل، هو معرفة ما إذا كنا في حاجة أو لا للإعلام الدلالي لاكتشاف أو اختيار قواعد (نحو)؛ والتحدي الذي يطرحه عادة الميالون إلى جواب تأكيد هو: «كيف تستطيعون أن تنشئوا نحواً دون إحضار المعنى»².

«ومع ذلك كما يلاحظ من تساؤل تشومسكي الأخير ودراساته في مواضيع أخرى تؤكد ما أدلى به جورج موان أنفأ بأن الرجل يتذبذب في مواقفه حول هذه المسألة أي العلاقة بين الدلالة والسانتكس خلال صيغ الجمل، علماً بأن لا أحد يتصور أن طفلاً ينشئ جملة نحوية بدون دلالة بينما قد يكون العكس خاصة في اللغات التي لا يلعب فيها نحوها أي دور أو دور كبير في الدوال على معانيها.

والحق أن هذا الإشكال مصطنع في إثارته أكثر مما هو حقيقة لغوية إنسانية، لأنه من غير الممكن أن نفصل تركيباً عن

1. Noam Chomsky, *Structure Syntaxique*, éd du Seuil, Paris, 1969, p. 107.

2. نفس المرجع، ص. 106.

بنائه، ولا بناء عن تركيبه، وتراكيب اللغة قد تتعدد ومواد البناء واحدة، وهذا التعدد قد يكون شكليا أو أسلوبيا والمقصود واحد، وقد يكون جوهريا أي متعدد الدلالات وعناصر تأليفه واحدة، لكن لا بد من عنصر مهيم، دون أن تعطى أهمية لهذا العنصر قياسات وهمية ما عدا قيمته التي تكمن في علاقته بالعناصر الأخرى مع التركيز في كل حالة يتكرر فيها هذا العنصر نفسه على القيم المتفاوتة للعنصر ذاته من تركيب إلى آخر.

تميز الاكتساب بخصائص ذاتية لكل لغة

إن النظريات اللغوية القديمة منها والحديثة على ما تراه من تشابهات شمولية وقواعد كلية تابعة للغة الإنسانية بوسع أي إنسان مستعد للكلام والنطق أن يتعلمها، ترى في الآن ذاته أن كل لغة تتميز عن سواها من اللغات بخصائص داخلية لا تخص إلا ذاتها، وهذه الخصوصيات الذاتية لا علاقة لها بأي شكل انتروبولوجي أو قومي أو تاريخي، وإذا كان لا بد من وجود سبب محتمل فإن الأمر قد يرجع إلى الغموضات والأساطير التي تكنف اللغة ذاتها.

إن اللغات المعروفة لدى المختصين لا يلاحظ فيها إلا نمط واحد من نظام الجمل «ففي كل منها لفظات تمثل العلاقة بينهما أساس التركيب ومحوره، ثم تأتي الألفاظ الأخرى لتوضح جزءاً من أجزاء هذه العلاقة، وقد سمى العرب هذين اللفظين مسنداً ومسنداً إليه... وفي اللغتين الإنجليزية والفرنسية يمثل المصطلح (subject)¹ المسند إليه، ثم يأتي الفعل ليكون مسنداً، وتسمى الألفاظ الأخرى عندهم (complément)² أي المتممات.

1. هذا في الإنجليزية، وفي الفرنسية sujet (فاعل).

2. هذا في الإنجليزية، وفي الفرنسية complément (متممات أو مكملات لإسناد، أي العلاقة بين وحدتين لغويتين (Rapport entre deux unités)).

إلا أن العربية تزيد على غيرها من اللغات الحية بالسمة الإعرابية، فهي تختلف عن إعراب اللغة الألمانية مثلا، إنه فيها أصوات خاصة تلحق آخر حرف من الكلمة المعربة، وتخضع... لأحد مؤثرين : مؤثر تركيبى لفظي ومؤثر معنوي صرف،... ومن هنا نجمت نظرية العامل في اللغة العربية ولم تنجم عن غيرها من اللغات «¹ ولذا حين نتحدث عن اكتساب لغوي فهناك ما هو عام بين كل اللغات، وهناك ما هو خاص وأخص بكل لغة على حدة ربما ليس فقط على مستواها الداخلي بل يتعداه إلى عوامل خارجية أخرى كالوسط الاجتماعي والمكان،... ولذا وجددتني أميل إلى تخصيص فصل للاكتساب اللغوي عند الفرد العربي مستقلا عن هذا الفصل.

1. أصول النحو العربي، د. محمد خير الحلواني، ص. 181-182.

2

الاكتساب اللغوي عند الفرد العربي بين العفوية والنظريات اللسانية

الاكتساب اللغوي بين التلقي الشفوي والكتابي

مما لاشك فيه أن ذلك الفرد العربي القديم الذي كان يكتسب لغته العربية الفصحى ويوظفها كلغة أحادية في كل المجالات يختلف عن هذا الفرد العربي الجديد أو غير المطبوع الذي غدا منذ عهد طويل من الصعب تحديده تربويًا وعلميًا خارج نشأة علوم العربية، يكتسب لغتين : إحداهما سليقية تتعلق بالتلقي الشفوي العفوي الذي نتج عن انتشار العربية بانتشار الإسلام ونفوذ الدولة العربية الإسلامية سياسة وإدارة و فكرًا وحضارة،... وهذا الانتشار الواسع السريع أدى إلى تكسير وتفكيك محاصيلها الصوتية والنحوية والصرفية وتفشي عاهات

في نظامها الفونولوجي، والمورفولوجي وثانيتها غير مطبوعة لأنها تتصل بالتطبيع، بحيث صار لا يوظفها إلا في الرسميات كالإدارات والأدبيات، مما جعل الفرد العربي منذ ظهور عهد التطبيع أو منذ اقتناعه مختاراً أو مكرهاً بتبني هذا النمط من اللغة مزدوج اللسان داخل لغة واحدة واللغة السليقية لهذا الفرد الحالي، كما نعلم، شفوي فقط، وأما الثانية التي كانت في وقت من الأوقات محكية فقط فأضحت اليوم مكتوبة أيضاً ولولا هذه الكتابة لكانت اليوم ظاهرة أخرى أولم تكن شيئاً حتى إن سوسور قال: "ولكون اللغة تنأى عن واقع الملاحظة، فإن على الألسني أن يأخذ في حسابه النصوص المكتوبة لأنها وحدها تمكنه من معرفة اللغات القديمة أو البعيدة زمنياً"¹ حتى وإن كان سوسور لا يقف موقفاً موحداً من هذه المسألة، حيث سبق أن قال قبل هذا النص: «إن النقد الفقهي يقع في عجز متمثل في جانب واحد، وذلك لكونه مرتبطاً باللغة المكتوبة بصورة حرفية متناسياً اللغة الحية»².

لا شك أن تعميم سوسور رؤيته على كل الدراسات الفلغوية القديمة يرجع إلى عدم اطلاعه على الدراسات اللغوية لدى العرب، حيث قامت تلك الدراسات مرتبطة بنصوص شفوية لا كتابية، وللرجل ثغرات أخرى كثيرة في كتابه المشار إليه من هذا النوع، ستذكر في ثنايا هذا العمل كلما كان مقام ذكرها مناسباً.

1. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 17، ف، دي سوسور.

2. المرجع السابق، ص. 11-12.

ولربما وقف الرجل هذا الموقف لوكوننا اليوم «لا نعرف عامة اللغات إلا كتابيا، وأما ما يخص لغتنا الأم نفسها، فإن الوثيقة ماثلة دائما بين أيدينا، وإذا ما أنيط الأمر بلغة محكية على بعد زمني ما، فإنه لحتمي بشكل أكثر من ذلك السعي إلى الشهادة الخطية للكتابة، وإذا كانت اللغات غير الموجودة هي المعنية بالأمر، فإن الحاجة إلى ذلك أمس وألح»¹. ومع ذلك فإنه يرى بأن الشكل المكتوب يتميز سموا على الشكل المنطوق، ثم لا يلبث أن يعود ليقول : إن الآراء السائدة التي نتناقلها حول اللغة لتمتزع بهذا الوهم المتزامن، ومن هنا يسود الاعتقاد أن بلغة ما تتحرف بسرعة أكبر في حال غياب الكتابة ولا شك أكثر خطأ من ذلك فالكتابة تستطيع – وهذا في بعض الظروف – أن تحد من سرعة تغيرات اللغة وعلى النقيض من ذلك، أن الاحتفاظ باللغة لا يمس إذا غابت الكتاب². وبعدها يضرب المثال باللغة الليتوانية التي لم تعرف الوثائق الخطية إلا منذ عام 1540م يردف قائلا : «إن هذا وحده كاف لبيان كم هي اللغة مستقلة عن الكتابة»³.

ولعل أوضح ما جاء عنده في هذا المنحى قوله : «للغة تقليد شفوي مستقل عن الكتابة وثابت على نحو آخر»⁴ وهذا لا يعني في مفهومنا أن هذا التقليد الشفوي منظومة لغوية تختلف جوهريا أو تتحرف عادة عن الصورة التقليدية للغة المكتوبة إلا في جانب

1. نفس المرجع، ص. 39.

2. المرجع السابق ن ص. 40.

3. نفس المرجع، ص. 40.

4. نفس المرجع، ص. 40.

واحد هو الجانب النطقي لأصواتها وهذا يكون حسب اللغات إذ يقل في لغة كالعربية ويكثر في لغة أخرى إلى درجة الفوضى كاللغة الفرنسية.

الاكتساب اللغوي وإشكالية العامي والفصح

وإذا كنا نعتقد بأن الخطاب الشفوي التقليدي يعد عاملاً من عوامل التطور اللغوي في اتجاهات لسانية غير ثابتة ولا مستقرة إلا في الذاكرة الشعبية التي يمثل دماغها الخزان الطبيعي فإن هذا لا يعني أن هذا الخطاب المتأمل بنصوص تراثية وخالدة ينشق عنها بعيداً إلى درجة أن هذه العاميات العربية ستؤول في زمن ما إلى فصحي ثانية للعرب كما يؤهم بعض الباحثين العرب المعاصرين: «ويبدو لنا أن مصير اللهجات العامية منفردة في أقطارها ومجتمعة في الأقطار العربية كلها كخصم للفصحى، مصير مغلق محتوم النهضة العلمية والأدبية وانتشار الجامعات والصحافة، وأن نظام التعليم للأطفال والناشئة سيقود العرب ثانية إلى لغة موحدة قريبة من الفصحى التي تبناها القرآن الكريم، وستكون للشعوب العربية لغة فصحي حديثة، تؤدي عنهم ما يريدون، وتنقل لهم ما يحبون سماعه»¹.

كيف أمكن للعربي في العصر الجاهلي أن يصطلح على لغة فصيحة مشتركة واحدة رغم الظروف القاسية المتعددة وعدم وجود نصوص مكتوبة شعرية كانت أم نثرية، ولا يستطيع هذا

1. اللهجات العربية القديمة، د. داود سلوم، ص. 16.

العربي اليوم أن يتمسك بلغة فصيحة واحدة ليضطر إلى خلق لغة فصحي ثانية؟ موقف كهذا الموقف غريب، لكن في المقابل لا مانع من العمل على تفصيح العامية وردها إلى أمها أي العربية الفصحى، ومع ذلك لن نستطيع مادامت كل عامية ممتزجة بآلاف الكلمات المحلية، ومن المستحيل تبديلها بكلمات أخرى، وإذا تغلب المختصون على هذه الاستحالة مع افتراض أقصى، فإن هذه الاستحالة لن تزول حين يراد فرض الكلمات البديلة على الطبقات الشعبية أو المتكلمين في كل قطر عربي بشكل عام، وبذلك تبقى الفصحى فصحي، والعامية عامية، لكن التهذيب والتثقيف وتعميم التعليم وتطوير وسائل الإعلال الفصيحة الحية بين هذه الشعوب قد يعمل تدريجياً على تهذيب العامية العربية وتقريبها من الفصحى الأم، إذ لا يمكن إخضاع الأسوأ إلى الأحسن.

إنتاج الخطابات الشفوية في ضوء الوظائف الست

إن اللغة كانت ظاهرة شفوية وعدة لغات لا تزال غير مكتوبة «إن مشكل النقل والحوار الفكري هو الذي قاد الإنسان إلى تحديد فكره بواسطة الإشارات من الرسوم أو الحروف¹». وإذا كانت اللغة المكتوبة اليوم تنسجم أو تتأقلم في التواصلات والأبحاث أكثر من اللغة الشفوية (langue parlée) فإن المعبر يملك كل الوقت لاختيار وعرض أفكاره وصيغ جملته وكلماته، «هذا الاختيار مراد وواع، لكن الانشغال الجمالي ليس بالضرورة غريباً على اللغة الشفوية»².

1. Charles Gordert, *Guide pratique de la grammaire française*, éd Hachette, 1978, p. 7.

2. نفس المرجع، ص.9.

ونحن اليوم إذا ما تأملنا بعضًا من تلك الخطابات الشفوية التي كان الفضاء الثقافي العربي مصدرًا طبيعيًا وواقعيًا لغويًا لها لأدركنا، وبدون تردد، تلك العلاقات السانتكسية الدلالية المتلازمة، ولأدركنا في الآن ذاته أن العنصر اللغوي بقدر ما كان يوظف توظيفًا مباشرًا كان يوظف أيضًا بطرق شتى وغير مباشرة بواسطة ما يعادله أو يبادله في السياق، وخاصة بالنسبة للوحدات المستقلة مثل أدوات الاستفهام والنفي والجر والاستثناء،...

إن عملية التلقي كانت عملية شفوية في كليتها، وإذا أردنا اليوم أن نتصورها كيف كانت تتم عبر قنوات اتصالها فإنها كانت تتم على الشكل المألوف :

سياق

مرسل.....رسالة.....مرسل إليه

اتصال

رمز اتصال

ذلك أن الكلام ليس فقط أداة، لكنه أيضًا وسيلة من وسائل الاتصال الأساسية، فهو شكل للفعل، وسيلة لتأكيد نفسه ككيان اجتماعي، قبل أي شيء هو خطاب للذة مثلما قد يكون خطابًا للعذاب "وكلّ فعل للتواصل الكلامي يضع في اللعبة متكلمًا أو مرسلًا يرسل رسالة نحو مرسل إليه أو مخاطب (يمكن أن يكون غائبًا ويمكن أن يكون مفترضًا)" هذه الرسالة مهورة بمرجع

(موضوع الخطاب، إلى أي شيء يحيل) لبيث رسالته (أي المتكلم) يستعين برمز اتصال، والذي من المفروض أن المخاطب يقاسمه فيه، أخيراً فإن التواصل يشترط قناة فيزيائية (الصوت الصفحة المكتوبة، الحركة،...) لتؤدي إلى إقامة الاتصال.

هذه العناصر الستة متضامنة في فعل التواصل الكلامي، لكن الواحد أو الآخر من بينها يمكن أن يأخذ أهمية خاصة، الشيء الذي يمكن من وضع هذه الوظائف الست الأساسية في اللغة بشكل واضح :

- المتكلم تقابله الوظيفة التعبيرية (expressive) أو الندائية (émotive).
- المخاطب (interlocuteur) يقابله الوظيفة التحريضية (incitation).
- (استجواب الأمر)
- المرجع تقابله الوظيفة المرجعية (référentielle) (إعلام).
- الاتصال، تقابله الوظيفة الانتباهية (phatique) (تبادل المشاعر، اتصالاً اجتماعي).
- رمز الاتصال يقابل بوظيفة تعدي اللغة أو ما وراء اللغة (تحليل رمز الاتصال).
- الرسالة، تقابل الوظيفة الشعرية (تلاعب بالألفاظ، لذة النص)¹.

1. Marina Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, éd du Seuil, Paris, p. 19-20.

إن عملية الاتصال وسط مجتمع عملية ليست بسيطة، لا سيما بالنسبة لمجتمع كالمجتمع العربي قبل عصر التدوين.

إن علاقة المتكلم بقنواته الخارجية ليحصل له فعلي إجباري بالكلام علاقة متميزة بمراعاة عوامل أساسية من هذه القنوات أو الوظائف ومنها ما هو موضوعي مثل الحضور، البعد، غياب المرسل إليه، مبادلة رسالة أولاً،... ومنها ما هو ذاتي واجتماعي تُهمّ بوجه أخصّ وضعيات أو حالات المتكلم الخاصة وكذا علاقاته.

ذلك أن كل نموذج لرسالة « يملك شروطه الخاصة للإنتاج، للنشر، للاستقبال، إن شروط التوصيل ليست هي عينها في الحوار أو العرض مثلاً : إن تقدم الوسائل السمعية البصرية أو القصص المصورة ينطوي على وجود نماذج جديدة من الرسائل المستعملة لأشكال لسانية نوعية.

دون أن نعمل هنا جرداً لأوضاع التواصل، نأخذ في الحسبان التعارض الجوهرى بين أوضاع التواصل الشفوي والكتابي الذي يحدد الاشتغال التبايني (fonctionnement différentiel) لرموز الاتصال من جهة والخطيئة من جهة ثانية أن نصل إلى تصنيف لغوي لمرسلات (رسالات) شفوية وكتابية، إن هذا التصنيف سيقوم على عدد من الثوابت : زمن الإرسال، زمن الجواب، بعد أو قرب المستقبل، تبادل أو عدمه، هكذا داخل الوضع الشفوي، نميز المحادثة (conversation) كوضع من التواصل الذي يتضمن

مستقبلاً راهناً (≠ تقديرياً virtuel)، ملاصق، اتصال فوري، تبادل، إن أهمية الصلة المتفق عليها بواسطة وسيلة التبليغ (communication) ليست أصغر أهمية: التعليق لن يكون هو نفسه إذا كان الأمر يتعلق بمرجع مختلف أو مرجع ظاهر»¹.

لا تتحقق اللغة كمنظومة إلا باستعمالها

إننا بتبني هذه النظريات مبدئياً، يمكن أن نقدر تلك الجهود التي كان الفرد العربي يبذلها في الاكتساب اللغوي من وسط اجتماعي لغوي قائم على الشفوية، وتمكنا في الآن ذاته من إزالة ما أمكن التعارض "الاجتماعي اللساني" ما بين اللغة الأدبية واللغة الشفوية اليومية في ذلك العصر، لأن التعارض «الشفوي - الخطي» لم يكن حاصلًا عند العرب، وأن ما كان يتعلمه الفرد العربي كان أحاديًا في مرجعيته المرتبطة بالكل، هو كان يكتسب لغته بطريقة عفوية تتم بطريق شاق شبه غير واع إلا من غيره، إنه كان يتعلم بإصغائه للآخرين «إذ أنها (اللغة) لا ترتسم في دماغنا إلا بعد تجارب عديدة... والانطباعات التي نستقبلها عبر سماعنا الآخرين هي التي تغير عاداتنا الألسنية»².

إلا أنه على الرغم مما قد تزودنا به هذه النظريات اللسانية الحديثة سواء ما اتصل منها بالاكتشاف أو التبليغ بالنسبة لحقل اللغة البشرية، فإنها لا تستطيع أن تقنعنا بشكل حاسم حول الكيفية

1. J. L- Chiss, J. Fillidlet et D. Mainguenu, *Initiation à la problématique structurelle*, éd Hachette, Paris, p. 79-80.

2. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 32.

التي كان يتم بها ذلك الاكتساب العفوي من مراجع كلها شفوية، ومحاولة الإحاطة بتلك الكيفية لا تخلو من أسرار وعجائبيات حين ننظر إلى هذا التلقي كعملية لسانية شمولية تستقصي وتحيط بكل خفايا اللغة وتعدد وتنوع تراكيبها من اشتقاق وبنية وحقيقة ومجاز،... مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد القوي بأن اللغة كمنظومة أو مدونة في حد ذاتها لا معنى لها دون استعمالها، هذا الاستعمال الذي ينطلق فردياً ثم يؤول إلى قواعد قد تصير مقبولة جماعياً، لكن متى صار هذا الاستعمال عادة لسانية جماعياً تقلص استعماله فردياً في أشكال لغوية خارج ما آل إليه كعادة لسانية جماعية، لأن الإبداع قانون فردي وليس شركة جماعية، ثم إن الفرد لا يبدع إلا حين يحس أو يظن بأنه خارج الجماعة، ومن ثم فإن القول أو الوصف شيء والإبداع شيء آخر، يجب أن نتفادى الخلط بينهما.

وليس معنى هذا أن تعبيراً متعدد الأوجه ينحزه فرد واحد بدعوى أن تعدده يدل على تشارك من المتكلمين المتبايني الزمان والمكان، إن أكثر من خلق يقوم به عادة أزيد من فرد واحد، ولا سيما حين تتعدد هذه البنى اللغوية في أزمنة متباينة وأمكنة متناحية فكلية: "رجل" التي وردت في القرآن الكريم على اثني عشر وجهاً كانت من خلق متكلم واحد، دون أن نهمل الإبداع القرآني وتوسيعه لحقيقتها ومجازها، ومع ذلك فإن القرآن عربي اللسان، وهو حجة للعربية وليس حجة عليها.

لمجتمع بدوي يغلب عليه التواصل الشفوي المطلق والاكْتساب اللغوي على السماع والتجربة المتكررة والعادات البلدية والشعبية في الاتصالات والخطاب، إن اللغة تحيا بالاستعمال لا بالدماع الذي هو جهاز مكلف بهذا الاستعمال، كما أن الشيء غير المؤكد منه حتى الآن : هل الأدمغة المفترض فيها أنها تخزن لغة معينة تخزنها موزعة فيما بينها ؟ هل العربية الفصحى أو هذه العاميات مشمولة كلها اليوم في أدمغة العرب، لا اعتقد ذلك، إن المجتمع البدوي الذي رحل من بادية إلى مدينة مثلاً لم يعد يخزن الكثير من قاموسه اللغوي الريفي إلا كذكرى عارضة ولذا، فإن الشكل السابق الذي تصوره دي سوسور يبقى لدينا صحيحاً في شكله لا في تفسيره، وتبعاً لهذا فإننا نتصوره كالتالي :

$$1+1+1 > \dots \text{ الاستعمالات الجديدة أو المحولة}$$

$$1+1+1 \geq \dots \text{ الاستعمالات الشائعة أو الجاهزة.}$$

ونحن هنا لسنا بعدُ بصدد الحديث عن اللغة في ذاتها بل عن تلقيها واستعمالها، وفي هذا الشأن يرى تشومسكي أن اللغة تعرف بواسطة بنياتها السانتكسية وليس بواسطة استعمال هذه البنيات في التبليغ¹.

وكما يلاحظ من أول وهلة أنه لا يمكن أن نستسيغ هذه الفكرة لتشومسكي إن هذه النظرة للغة نظرة جزئية، لأن هذا يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن الاكتساب للغة يتم فقط عن طريق بنياتها

1. Daniel Delas et J. Fillidlet, *Linguistique et poétique*, librairie Larousse, Paris, p. 192.

السانتكية مع أن هذه البنية لا تشكل بالنسبة لها إلا مستوى واحداً حتى في اكتساب لغة حية معاصرة لا يتم إلا عبر ثلاثة طوابع (Aspects) أساسية ؛ هي البنية الفونولوجية، والبنية المورفولوجية، والبنية السانتكية¹ وكل فرد من مجموعة لغوية إلا وقد استبطن (a intériorisé) وهو يتعلم لغته الأصلية (langue naturelle) «نموذجاً للغة ونحواً (grammaire) من ثلاث طبقات : دلالي، سانتكي ومورفولوجي، كل من يهتك الواحد أو الآخر أو المجموع من هذه المكونات الثلاثة وهو، مبدئياً غير نحوي (agrammatical)² أي البنية اللغوية بكامل عناصرها المتشاركة فعليا فيها وليس بأحد أو بعض عناصرها، والعربي القديم لم يكن يتلقى لغته الأصلية إلا كاملة مثلما يتعلم العربي الحديث، ومنذ عهد بعيد، هذه العامية التي تعد لغته الأولى بالنسبة لبيته ومحيطه، وعلى هذا، فلغتنا مخترنة في الاستعمال، وليس في الدماغ، أين دماغ الخليل بن أحمد ذلك اللساني الجبار الذي حفظ العربية، أو كاد، استعمالاً وإهمالاً وأين دماغ أبي عمرو الذي كانت كتبه، سوى ما حفظ، ملأ بيت حتى السقف، وأين دماغ سيبويه صاحب قرآن النحو وأين، وأين...؟ إن الدماغ اللغوي لا يورث بدماغ تال بل يورث بما خلفه من ورائه من إبداع واستعمال، ولا تبقى إلا طريقة البحث والتقصي من أجل الوقوف على الكيفية التي تنسخ بها تلك الإستعمالات التي هي مبدئياً ما بين استعمال مجدد أو محول، وما بين استعمال شائع وجاهز.

1. Denis Girard, *linguistique appliquée et didactique des langues*, éd Armand colin, longman, 1972, p. 6.

2. J. B. Barinon et Geneviene Dupont, *Pour comprendre la linguistique*, Marabout université p. 44.

ثم إن ما يسمى بوجود لغوي متموضع خارج إرادة الفرد لا معنى له خارج إرادة الفرد في الاستعمال، ويبدو أن اللغة مثلما تكتسب تستعمل ومن الصعب تحديد الهوية بينهما ما دامت الهوية بين النظامين متماثلة إلى حد ما، غير أن الناس في ذلك فريقان : فريق يركز نظره على التحليل والوصف، وفريق يستغرق في الحديث عن أصلها ووظيفتها، لأنه لا يمكن المزج بينهما في الوقت نفسه. واللغة لا تتطور أو تتغير خارج الاستعمال اللامتناهي في إبداعه وتجديده تبعاً لخصائص كل لغة داخلية كانت أم خارجية، لأن عزل اللغة عن مستعملها مرام وهمي.

اللغة قيم متحركة لا ثابتة

وحتى الرسم السابق الذي مثل به دي سوسور الوعي الجمعي الحي للأدمغة يظل متنازعا فيه، لأنه يمثل قيماً أو كميات ثابتة، مع أن اللغة متفاوتة ومتنوعة في هذه الأدمغة تبعاً لتصور سوسور نفسه، ولذا فإن الرسمين المستوحين منه هما أيضاً يظلان ناقصين، إذا أخذنا بعين الاعتبار كذلك الاستعمالات المتفاوتة والمتباينة حسب الطبقات المتكلمة أو المعبرة التي تستعمل اللغة وفق مستويات اشتغالها وعليه فنميل إلى التصور الرياضي التالي :

س + ص + ع + ... ③ (بالنسبة للأول) (ط)

س + س + س + ... ③ (بالنسبة للثاني) (ك)

بحيث تتقاطع الاستعمالات، ليتمّ على المحور العمودي الاختيارات الممكنة من المتكلم بالنسبة لباقي كل الاختيارات الأخرى، لأن كل رسالة (message) تقدّر أو تفرض كذلك سلسلة متوالية من الاختيارات، أو قل: يؤلف الجرد «لكل مقطع من القول، ولكل الوحدات القابلة لأداء نفس الوظيفة في نفس السياق» بينما يختص المحور الأفقي بالتعارضات التركيبية أو التوفيقية (Contraintes combinatoires) أي يرمز إلى السلسلة الكلامية، لأنه ينظم العلاقات التركيبية (relations syntagmatiques).

الملكة اللسانية والاكْتساب اللغوي من وجهة نظر ابن خلدون

ومن العرب المحدثين من حاول أن يبرز من خلال الألسنية ونظرياتها الحديثة لغة الطفل العربي، من هؤلاء الأستاذ جورج كلاس الذي حاول أن يبحث هذا الموضوع فاتخذ الطفل اللبني نموذجاً، لكن العنوان لكتابه يختلف تماماً عما جاء، في داخله، ذلك أن الرجل لم يتكلم عما ورد في عنوان مؤلفه إلا القليل، حيث لا يشكل عنوانه إلا فصلاً واحداً من الفصول الخمسة، وفي مساحة خطية لا تتعدى اثنتين وعشرين صفحة (من الحجم الصغير) من بين مائتين وست عشرة صفحة!، أما باقي الكتاب فهو دراسة عامة تخص الطفل العربي مثلما تخص غيره، ولربما هي أولى بالثاني منها بالأول لأنها تركز على نظريات لغوية غير عربية لا تفيدنا من الناحية الحسية والميدانية بالنسبة لنظام

الاكتساب اللغوي لدى الطفل العربي أو الفرد العربي بشكل عام، والحق أن ما وجدته عند ابن خلدون أفادني في هذه النقطة أعظم فائدة من أي مرجع عربي آخر، من هنا نتخذ هذا المرجع أساساً لبيان هذه العملية ذات الطابع اللغوي – الاجتماعي كيف كانت تحصل للعربي إلى غاية عصر ابن خلدون دون أن نقصي ما تقاطع مع نظريات ابن خلدون اللغوية – الاجتماعية كلما كان هذا التقاطع العلمي أو الفكري بعيداً عن أي تعسف.

إن ابن خلدون، كعالم اجتماعي، حاول أن يوضح العلاقة التي تربط اللغة بقوانينها أو قواعدها منبهاً على الفرق بين الظاهرتين من جهة، وأن يبيّن هذه العلاقة بين اللغة أيضاً وصلتها بالحياة الاجتماعية بشكل عام أي في جميع حقولها، ولم يكن إنجازاً هذا تأملياً أو ناتجاً عن بذخ فكري كما نجد لدى بعض فلاسفة يونان بل عن معاشة ودراسة ودراسة كثيرة ما فاقت النظر الثاقب لعلماء اللغة أنفسهم، لقد بيّن بوضوح أثر المجتمع المنعكس على لغته أو شتى خطابه، ولقد سبق بذلك علماء الاجتماع الأوروبيين الذين غالباً ما يحيلون على دور كايم الذي – اعتبر أحد المراجع لدي سوسور.

إن ابن خلدون ينطلق من فكرة منطقية أن الإنسان يتميز عن الحيوانات في إدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات¹. ويؤكد على أن الملكة إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا

1. المقدمة، ص. 489.

تنوسي الفعل تنوسيت الملكة لناشئة عنه¹، مؤكداً في أكثر من موضع على أن العرب لم يكونوا يحتاجون إلى فهم معاني القرآن في مفرداته وتراكيبه إلى قوانين خارجية أو مستقلة عن العربية² «وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علومًا ولا قوانين، ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها لأنها جبلة وملكة، فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون،... واعلم أن هذا الفن (الفقه) من الفنون المستحدثة في الملة، وكان السلف في غيبة عنه بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى مزيد مما عندهم من الملكة اللسانية»³.

والملكة عد بن خلدون لا تختص باكتساب فن أو علم... دون سائر الفنون والعلوم الباقية بما فيها العلوم العقلية «اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري وبكونه عملياً هو جسماني محسوس،... والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة، ونقل المعاينة أو عب وأتم من نقل الخبر والعلم، فالملكة الحاصلة عن الخبر على قدر جودة التعليم وملكة المتعلم في الصناعة وحصول ملكته»⁴.

إن الاكتساب اللغوي للفرد العربي لم يكن يختلف عن هذا الوصف في أحد شقيه أولاً ثم بكلا شقيه ثانياً، والاستعمالات

1. نفس المرجع، ص. 534.

2. نفس المرجع، ص. 438-440.

3. نفس المرجع، ص. 454.

4. المرجع السابق، ص. 399-400.

اللغوية الحاصلة في تلقي ذلك الفرد كانت أصلية ضمن طبقة لغوية مشتركة من خلال السماع والمشاهدة، ولذلك كانت الملكة اللغوية العربية قبل التدوين أنضج وأوعب وأتمّ من الملكة العربية مما يعد عصر التدوين (نقل المعاينة أو عَـبُ وأتم من نقل الخبر والعلم).

وبعدّ النظر لدى ابن خلدون أن الفرد إذا حصلت له ملكة، فإنه قلما يجيد في ملكة أخرى «والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدهم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادًا لحصولها، فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيه الانسداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة أضعف»¹.

إن عدم تألف ملكتين من صناعة واحدة قد يكون أقوى أي أبعد إتقانًا لهما معًا في الآن ذاته لتداخلهما، وكلما تباينت الملكات في فنونها ربما كانت أوضح حصولاً ولا أقول أسهل، لأن ما تقارب من الظواهر يكون أقرب إدراكًا مما بعد منها، العربي يجد سهولة أحسن من أوروبي في تعلم العبرية، والإسباني يجد يسرًا أفضل من عربي في تعلم الإيطالية أو البرتغالية...

وسوف نجد ابن خلدون يستغل نظريته وهو يصف فسادًا للملكة اللسانية في العربية، رادًا ذلك إلى الملكة اللغوية الأصلية السابقة عند الشعوب المفتوحة على العربية لغة الفاتحين.

1. نفس المرجع، ص. 405.

والملكة عنده أيضاً هي ليست فيما يفهم أو يدرك بالوعي، لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن (إطلاق عام هنا) الواحد ووعيتها مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يعرف علماً وبين العالم فيها «فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي، والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره»¹.

ولا حظ ابن خلدون أن الملكة لا تحصل إلا بكثرة وحرية التصرف فيما تواجه أو نحفظ من نصوص، فأهل إفريقية والمغرب لم تحصل لهم ملكة اللسان جملة حين اقتصروا على القرآن «وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام»².

وعليه، فإن المفهوم العام للملكة عند ابن خلدون يقوم على أساس أنها تختص بالإنسان دون غيره من الكائنات أي يجب أن يكون لمن تحصل له استعداد فطري اعتباطي، وأن تكون كلية لا تتصل بأصحاب صناعة أو اكتساب علم دون آخرين، وأنها جسمانية وحسية، وهي قد تكون جبلة لكن على مرحلتين : ملكة

1. نفس المرجع، ص. 430.

2. المرجع السابق، ص. 539.

أولى أو تعميم أولى، وملكة ثانية أو تعليم ثان، فالأول خاص بالناشئة عبر مراحل، والثاني متعلق بالكبار، لأن اكتساب لغة فصيحة بعد اكتساب لغة عامية يجب أن يخضع لهذين النوعين من الملكتين اللتين يستحيل إحداهما أن تذوب جملة وتفصيلاً في الأخرى، ومن هنا فإننا نستبعد دائماً وجود ملكتين عند الفرد العربي الأول: إحداهما فصيحة وأخرهما عامية على شاكلة المجموعة اللسانية التي صارت تتواصل بالعربية بعد فساد الملكة الأولى وتلقيحها بملكات لسانية محلية حسب كل جهة جغرافية معينة.

ومما يسمح بوجود ملكات من الاكتسابات اللغوية المتدانية حيناً والمتباينة حيناً آخر أن العربية كغيرها من اللغات الإنسانية مؤلفة من بنيتين: عميقة وسطحية، يستطيع المتكلم أن يولد جملاً لامتناهية من التركيب الفطري الباطني الكامن عنده لبناء وصياغة بنيات سطحية بفضل ما أسماه تشومسكي بالكفاءة، (compétence) والأداء (performance)، وكذا يوجد ما أسماه أندري مارتيني بالتلفظ المزدوج الأول وهي الوحدات الدالة، والتلفظ المزدوج الثاني وهي الفونيمات، بمعنى أن الملكة الأولى لهذا الفرد في صغره تتقاطع مع الملكة الثانية له في كبره أو في سن معينة (حسب الوقت التي تحصل فيه الملكة الثانية)، وبالتالي تتلاقى ملكات أفراد في وسط اجتماعي - لغوي واحد، لأن هؤلاء الأفراد يظلون مرتبطين بقواعد عامة بين لغتهم الأصلية ولغتهم الفرعية، وهنا تنشأ صعوبة أخرى منهجية في تحديد ماهيته الأصلي والفرعي.

وعلى الرغم من تداخل الملكات، فإن كل ملكة تظل منتمية إلى صفتها وحدود تفاعلها مع ما يقاربها أو يباعدتها من الملكات، غير أن الملكة مع ذلك تظل مستقلة عما تحتويه، فاللغة ليست هي الملكة ذاتها والعكس بالعكس، ولكن الملكة مقدرة طبيعية وعادية في الاستعمال بعد حصول اكتسابها.

والملكة عند ابن خلدون بشكل عام هي ما يدل على العموم أو الكلي الذي لا يخص جنساً دون آخر، وعلى الفردية وهو صاحب هذه الملكة والتمرس فيها بشكل طبيعي وعلى اللغة وهي تخص مجموعة اجتماعية معينة، وعلى الكلام وهذا الأخير يعرف أو يعين من خلال نوعية الخطاب ودرجته ومستواه، ونتصوره كما يلي :

عمومي		لسان
اكتساب خصوصي		ملكة
جماعية	لغة	
فردية	كلام	

والملكة عند أبي خلدون تختلف عن الثنايات أو التعارضات التي ولعت بها بعض النظريات اللسانية، إذ هي كفاءة وأداة في آن واحد، ولا يمكن لأحدهما أن يقوم مقام الآخر أو يقوم دون الآخر، خلافاً لما عند تشومسكي :

— كفاءة/ أداء competence /performance

أو عند سوسور :

— لغة / كلام langue/ parole

أو عند أندري مارتيني :

— مونيم / فونيم monème/phonème

أو حتى عند سوسور على الشكل الآخر:

— دال / مدلول signifiant/signifié

أركان اللسان العربي عند ابن خلدون

حين يتطرق ابن خلدون إلى الحديث عن علوم اللسان العربي حيث يذكر أن أركان هذا اللسان أربعة : اللغة، النحو، البيان، الأدب، يشير هنا كعالم لساني وليس كعالم اجتماع إلى أن الأهمّ المقدم منها هو النحو لأنه أصول المقاصد به تتبين فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر،... مردقًا بأنه كان من حق علم اللغة التقدم «لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه، فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلاص بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة»¹.

بين تشومسكي وابن خلدون

ونحن كنا قبل هذا لمحنا إلى تشومسكي الذي حاول أن يولد قواعد سانتكسية دون اعتبار للدلالة، حتى إنه ذكر بأن اللغة تعرف بواسطة بنياتها السانتكسية وليس عبر استعمال هذه البنيات في التبليغ، وإذا ملنا إلى أن ما عناه ابن خلدون بـ : "علم النحو" يقابل

1. المرجع السابق، ص. 545.

اصطلاحياً أو قريباً من هذا "السانتكس syntaxe" فإن الرجلين يكادان يتقاربان، «تشومسكي كان يؤمل أن يعالج السانتكس باستقلال عن الدلالة... وبالفعل، يمكن أن تكون جمل تبدو في حدس اللساني من الناحية السانتكسية صحيحة، لكنها تفتقر إلى المعنى، إن قواعد النحو التوليدية إذن، في وقتها الأول، تكون مؤلفة كقواعد للسانتكس، إن علماء النفس اللغوي خلال الستينات من هذا القرن حددوا لأنفسهم غاية الإثبات الصحة البسيكولوجية للأنموذج التوليدي حققوا تجارب مُعدة إلى البرهنة على أن التعقيد البسيكولوجي لقول (énoncé) كان على صلة بصف العمليات المتعاقبة المبينة بالأنموذج من أجل أن ننتج، سطحياً (en surface)، التحويلات المختلفة لإحدى الجمل النواة (phrase-noyau)، أجهدوا أنفسهم كذلك ليثبتوا، دارسين الجمل الغامضة (les phrases ambiguës) حيث إن نفس التابع في البنية السطحية يمكن أن يكون مشتقاً من بنيتين عميقتين، بأن هذه البنى العميقة (أو هنا البنيتين العميقتين) وقواعد الاشتقاق كان لها شرعية بسيكولوجية، وأخيراً بحثوا لمعرفة ما إذا كان الإدراك الحسي لجمل كان فهمه يتضمن مسعى أو إجراء عكسياً لدى الجيل»¹.

تقديم ابن خلدون النحو على اللغة

إن ابن خلدون قدم النحو على اللغة من أجل الحفاظ على سلامة الدلالة ومنعاً لتفشي اللحن في التعبير على السنة القوم، ورأينا من قبل كيف أن تشومسكي تذبذب في موقفه هذا، لكنه

1. J. B. Barinon et G. Dupont, *Comprendre la linguistique*, Marabout université, p. 58-59.

صرح مع ذلك بأن الجملة النحوية هي كل جملة ذات دلالة حيث عقد فصلاً خاصاً لهذا الموضوع، لأن الغموض الذي أربكه في عدة جمل أجبره إلى الاعتراف، «إن الجمل النحوية هي الجمل التي لها معنى دلالي¹».

لكن الملاحظة التي نبديها على ابن خلدون عدم قبولنا لقوله : «كان علم النحو أهم من اللغة» إلا إذا كان يقصد بهذا الطابع المنهجي لأننا لا نعرف نحواً بدون لغة، بينما نعرف هذه اللغات الأصلية أو العامية تتكلمها الشعوب العربية مشرقاً ومغرباً، ولا نعرف لها نحواً مؤسساً، والعربية في عهد سليقتها كان أصحابها يتخاطبون بها في كل أغراضهم ومقاصدهم ولا يعرفون علمياً أن لها نحواً يصحبها ويقومها، فاللغة روح ونحوها جسد أو اللغة شكل ونحوها نظم وتنظيم لها.

إدراك ابن خلدون الفرق بين التواصل والوظيفة للغة

لكن الأهم من هذا أن ابن خلدون أدرك الفرق البين بين اللغة كأداة تواصلية إعلامية بطرقها المتعددة ووظيفة إنسانية من جهة وبين علم النحو أو السانتكس الذي يخص قواعد هذه اللغة من جهة ثانية «ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصصها، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر، فليست اللغات وملكاتهما مجاناً²».

1. N. Chomsky, *structure syntaxique*, éd du Seuil, Paris, 1969, p. 107.

2. المقدمة، ص. 557.

بل قال بصريح العبارة : «إن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علمًا ولا يحكمها عملاً»¹.

زوال الحركات الإعرابية ليست دليلاً على فساد العربية

وابن خلدون لا يرى في زوال الحركات الإعرابية في أواخر الكلمة للغه عهده دليلاً على فساد اللسان العربي «ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلمة من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى، والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنصر موجودة في مخاطباتهم،... ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلمة فقط الذي لزم في لسان مضر.

طريقة واحدة ومهيئاً معروفاً وهو الإعراب، وهو بعض من أحكام اللسان»².

1. نفس المرجع، ص. 560.

2. نفس المرجع، ص. 556.

حصول الملكة بتكرار الأفعال

وبالنسبة للغة عنده أنها ملكة كانت حاصلة وثابتة في السنة العرب «يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا، فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، والسمع أبو الملكات اللسانية،...»¹.

والملكات لم تكن لتحصل للفرد العربي إلا بتكرار الأفعال «لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة، فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيره عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم، هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها.

العجم والأطفال، وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب أي بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم

1. نفس المرجع، ص. .

يأخذوها عن غيرهم»¹ وربما هذا النص هو حديث أكثر مما هو قديم، لأنني لم أعثر على نص فيما قرأت وتصفححت يضاهي نص ابن خلدون وضوحًا وتركيزًا وإشراقًا، إن النص يمكن أن يعد نظرية لسانية كلية لأي اكتساب لغوي ذي خطاب شفوي (والسمع أبو الملكات)، إن ابن خلدون عمم في نصه كل الطرق التي تتساءل حولها اللسانيات البيداغوجية الحديثة، بما فيها عنصر المحاكاة والتقليد وبما فيها التكرار، وهو يركز على أن الملكة العربية الأولى التي كانت مصدرًا للاكتساب اللغوي لدى الفرد العربي كانت في العرب طبعًا، ولما تغير هذا الطبع صارت تلك الملكة الأولى على غير صورتها الأولى فانقلبت لغة أخرى، ربما هي هذه العامية العربية نفسها.

ولا ننسى أن الانعزال الاجتماعي والسياسي للعرب ساهم في الحيلولة «دون تسرب الفساد للسان العربي، فكان أطفالهم يرضعون من آبار لغوية صافية، فظلت اللغة تتوارث أجيالاً بالاعتماد على الطبع والسماع وحدهما»².

إن الاكتساب اللغوي لدى الفرد العربي المطبوع كان يكتسب الكل دون توقف أو تأمل فيما تصاغ وتبنى به تلك الأشكال اللغوية التي كان يفتن بها خلقًا عن سلف سماعًا ومشاهدة وحسًا وتجربة متكررة، ولهذا «يجب أن نفرق بين هذه القواعد علومًا

1. المرجع السابق، ص. 554-555.

2. بؤادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب، ص. 9.

اصطلاحية وبين كونها وظائفلسانية ذات غاية بنيوية معينة بكل ما يدخل فيها ويحيط بها من عناصر مختلفة، إذ العربي أي عربي كان يدرك تمام الإدراك البنية العميقة لهذه الأشكال كلما وظفها بهذا الشكل أو ذلك، مثلما ندرك نحن اليوم البنية العميقة لعاميتنا حقيقة ومجازاً وصورة كما سمعنا وظائفها المتعددة آلياً دون أن نتردد لحظة في فهمها، والعربي كان أدرك لفصحاء من إدراكنا نحن اليوم لعاميتنا¹ باعتبارها كانت فيه ملكة راسخة تنمو فيه بنموه وتستحكم في طبعه بنضجه، خلافاً لنا نحن اليوم مع عاميتنا، حيث نواجه بحصول ملكة تعليمية حسب خطاب كتابي بعد بلوغ سن معينة عسى أن تقترب ملكتنا الجديدة من الطبع العربي الأول.

الآلات الحسية والعادات في الاكتساب اللغوي

إننا نستوحي من أحد أقوال محمد بن سلام الجمحي :
«وللشع صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تتقفه العين، ومنها ما تتقفه الأذن، ومنها ما تتقفه اليد، ومنها ما يتقفه اللسان»² أن هذه الآلات الحسية (أدوات : سمعية، بصرية، لمسية، توتوية).

كلها كان «يعتمد عليها العربي قبل وضع القواعد لصناعة ما يرغب فيه من تراكيب إلى جانب العادات اللسانية على كيفية أو

1. العربية بين الطبع والتطبيع، ص. 23 .

2. طبقات الشعراء، ابن سلام، ج1، ص.5.

أخرى جاءت الصناعة على نحوهما،... وعلى ضوء ما تتقفه أذنه ولسانه من جديد يهتدي إلى صناعة لسانية جديدة نسبياً، وهذا في إطار محيط لغوي واحد، وفي إطار عادات لسانية متشابهة ومن أصل واحد، أما إذا اختلف المحيط اللغوي مع اختلاف العادات والتقاليد اللسانية كلياً فهذا شيء آخر»¹.

إن العادات الواسعة والمتوارثة في محيط لغوي مشترك وما صاحبها من سلوك لساني متشابه قائم على كفاءات متناظرة وبنى لغوية نواتيه في الذهن والاستعمال،... لعبت دورها العفوي والفعال في اكتساب الفرد العربي تلك الملكة اللسانية التي ظلت العادات اللسانية في التخاطب والأداء على مراحلها البعيدة والقريبة تسيرها وتكيفها وتكنفها بالرعاية والاهتمام، بحيث كانت تلك العادات «وحدتها التأليف الشفوي الذي ظل يقوم مقام التأليف الكتابي»².

ومع خضوع العربي المطبوع إلى تلك العادات اللسانية العامة والمتواضع عليها والتي بدأت تتطفي وتخبو تدريجياً، فإن الفرد منهم ربما خرج قليلاً أو كثيراً عن جزء من طبيعة كلامية، لكنه في الآن ذاته يبقى متمسكاً بالنظام العام الذي يكيف به كلامه أي باعتباره متكلماً أصلياً يمتلك ناصية كفاءته اللغوية قدرة وأداء فإنه ينطلق دائماً من جملة أصلية نواة يولد منها ما يحتاج من

1. العربية بين الطبع والتطبيع، ص. 24.

2. نفس المرجع، ص. 25.

جمل لا متناهية¹، ولربما احتل الواحد منهم قبح الكلام حتى يضعه في غير موضعه على حد ما أورده سيبويه² لكن الجزء لا يقوم دليلاً على المنظومة اللغوية كلها على الرغم من أنه قد يصبح ظاهرة متفشية في المنظومة لا يلبث الكل أن يتبناها ولو كظاهرة لسانية فردية غريبة ووجود بدائل تؤدي وظيفتها الفونولوجية أو المورفولوجية أو السانتكسية.

لم تكن العربية نسخاً متماثلة

ولم يعد اليوم صعباً علينا، بفضل الوثائق التي نملك عن هذا الاكتساب اللغوي الشامل، أن نجزم بأن العربية لم تكن دائماً نسخاً طبق الأصل بين استعمالات وراثية وموروثة، ولكنها كانت تخضع في كل حال وهي تنمى من الداخل «لمنهجية تواصلية بدوية واحدة سواء اعتبرنا مقتضيات هذا المنهجية التواصلية عفوية أم اصطلاحية أم تعليمية،... ومن المؤكد في هذه التنمية أنها كانت تنمى عندهم ميدانياً: أفقياً وعمودياً في الآن ذاته،... وأعتقد أن الأمثال الشعبية تقفنا على أصدق الميادين اللغوية ومجالاتها ومميزاتها»³.

ليست الملكات مجاناً

لكن كما قال ابن خلدون: «ليست الملكات مجاناً» وانطلاقاً من هذه المقولة فإنه ينكر أن يكون كل من الإعراب والبلاغة

1. المرجع السابق، ص. 82-83.

2. ينظر الكتاب ج1/ص. 31-32.

3. العربية بين الطبع والتطبيع، ص. 143-144.

أمراً طبيعياً عند العرب أصحاب الملكة اللسانية الأصلية التي وصلنا بها تراثهم، كما أنه ينكر أن يكون العرب قد نطقوا بالطبع «وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع»¹، وهي إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع (والسمع أبو الملكات). التقاطع بين الملكات واللغات.

غير أن ملكة لسانية إذا سبقت بملكة لسانية أخرى لا تحصل إلا ناقصة مخدوشة «وإن فرضنا أعجمياً في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكالية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمدارسة فربما يحصل ذلك لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر...»² فإن عرض لك ما تسمعه : «من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجماً مع حصول هذه الملكة لهم فأعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط، وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم، فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها، وكأنهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها، فإنهم وإن كانوا عجماً في النسب فليسوا بأعجام في اللغة والكلام كأنهم أدركوا الملكة في عنفوانها واللغة في شبابها، ولم تذهب آثاراً لملكة ولا من أهل الأمصار»³ ولا حظ ابن

1. المقدمة، ص. 562.

2. المرجع السابق، ص. 564. وانظر كذلك في نفس السياق، ص. 568-569.

3. نفسه، ص. 563-564.

خلدون أن هناك لغة ثالثة تدور بين الناس ليست هي بلغة مضر القديمة ولا بلغة جيل عصره، وإنما هي لغة قائمة بذاتها بعيدة عن كل من اللغتين المذكورتين «فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحنًا، وهي مع ذلك تختلف باختلاف للأمصار في اصطلاحاتهم، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، وكل منهم متوصل بلغته إلى تادية مقصودة والإبانة عما في نفسه، وهذا معنى اللسان واللغة، وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد، وأما إنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل، فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمية فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه، وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى، واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق...»¹.

الاكتساب بين العامية والفصحى

إن الاكتساب اللغوي بالنسبة للفرد العربي إذا تغير مما ألفناه وهو في عهد سلفيته إلى اكتساب ازدواجي من حيث ملكته الأصلية والملكة الواردة عليه فتكونت له لغة هي وسط، لكن هذه اللغة : أهي العامية نفسها أم لغة أخرى ؟ وهل لغتنا المعاصرة

1. المرجع السابق، ص. 558.

التي اكتسبناها من أفواه المحيط وجدران المدارس والصحف،... هي اللغة المضرية عينها أم فقط هي قريبة منها؟ إن مجرد الشك فيما يتلفظ به الإنسان الراشد هو شك في وجوده من الأساس، غير أن هناك إشكالية أثارها ابن خلدون تتعلق بعدم جدوى حركات الإعراب في اللغة العامية، لكننا لا ننساق مندفعين من هذه الفكرة ضاربين صفحاً عما قدمته الملكة اللسانية الأولى من خدمات كبيرة للملكة اللسانية الثانية والتي صارت اليوم في مجتمعنا ملكة أولى حيث حلت فينا بطبعها محل الأولى، ومن هذه الخدمات أن المكتسب للعامية سبق لمن تقدمه من المتلقين والمتكلمين أنهم قد استفادوا من تراكيب أصلية سليمة الملكة اللسانية ثم نقلت مشوهة في خطاب شفوي منحرف عن ذلك الخطاب الشفوي الأصلي الصحيح، ولذلك ظلت الدلالة هي الدلالة مع سقوط الإعراب شكلياً، لكن الإعراب ظل ضمنياً في العامية العربية قل من يفتن إليه، أريد أن أقول من وجهة سانتكسية أن كل هذه الجمل العُقل من الحركات الإعرابية مولودة من جمل نواتية عميقة البنية سليماتها :

1. كَسَّرَ الغُلامُ الزجاجَ

2. كَسَّرَ الغلامُ الزجاجَ (أو الزجاجُ بالعامية الجزائرية)

3. الغلامُ كَسَّرَ الزجاجَ

4. الزجاجُ كَسَّرَ الغلامَ

5. كَسَّرَ الزجاجُ الغلامَ

بالنظر إلى هذه الجمل الخمس أعلاه أن الجملة الأصلية (1) هي التي كانت منطلقاً للجمل المولدة عنها والتي فقدت حركات إعرابية، والجملة العامية هي العالة دلاليًا ونحويًا على الجملة الأصلية، ثم لننظر كيف أن الجملة (5) في العامية غير مقبولة دلاليًا على الرغم من أنها مقبولة سانتكسيًا، لأن الجملة المولدة :

6. كسر الزجاج الغلام

غير مقبولة دلاليًا على الرغم من أنها صحيحة نحويًا.

والجملة الرابعة في العامية غامضة بينما هي في الفصحى غير كذلك حين نقدر المفعول المقدم، لكن بنسخ من هذا التقدير الأخير المقبول في السانتكس العربي تصبح ذات الجملة غير غامضة في العامية أيضًا، وهذا ما فات ابن خلدون والكثيرين الذين وقفت لهم على كلام مشابه.

ملكتان : أصلية وفرعية

وعلى هذا فإن الملكة اللسانية الأولى بالنسبة لنا في عاميتنا ليست مجاناً – باصطلاح ابن خلدون – بل هي استعمالات متناسخة من جهة وقواعد خطابية إبداعية وفق تلك اللسانية العربية الأصلية بجميع أصنافها من جهة ثانية، وهذه القواعد ضمنية، كما كان الشأن بالنسبة للعربية المطبوعة، سوى أننا في هذه الأخيرة نبديها ولربما نتحذلق أحياناً ونتفخخ فيها باعتبارها صارت فينا نظاماً من السلوك المكتسب بتصنع وتكلف، وفي

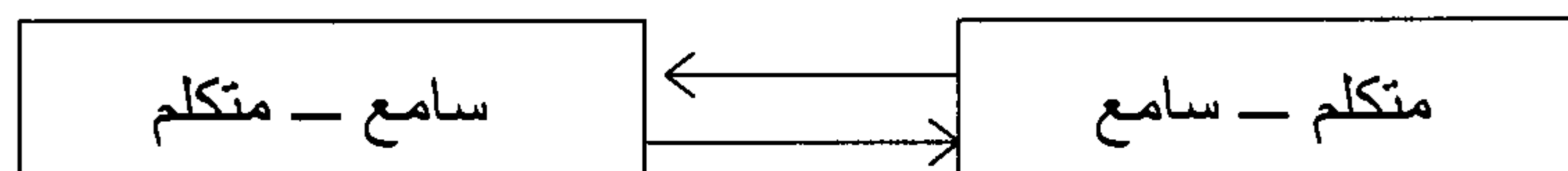
العامية لا نبدي هذه القواعد ولا حتى فكرنا يوماً لطرح سؤال حولها حين يحضرنا قصد من التواصل والخطاب.

وعليه ففساد ملكة لسانية غائبة أو محذوفة في صورتها السمعية أو الفيزياء والتي لم تعد ممكنة لإسماعها لناس صوتياً أو إبرازها فيزيولوجياً، لا يعني فساد اللسان في عملياته التبليغية بالجملة، ما دامت هناك ملكة لسانية أصلية ضمنية حضوراً في كل ما حذف أو غاب أو تبدل في سطح الخطاب العامي، وهذا ليس مقتصرًا على اللغات المعربة وحدها بل قد يصدق على أية لغة آل مصيرها كمصير العربية إلى بروز لهجات من صلبها، ونظامها الأصلي الخاص ببنيتها هو الذي يتكفل بعاميتها ضمناً.

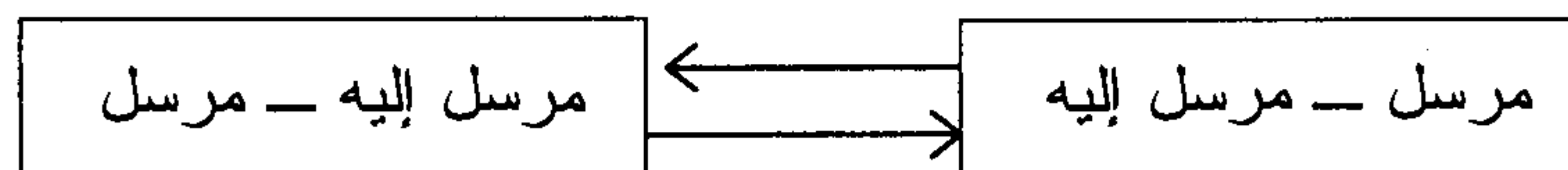
إن صعوبة تفصيح العامية إنما يعود في نظرنا إلى هذه الإشكالية شبه المستحيلة والتي تتمثل في تلك المحاولة التعسفية لوضع ملكة لسانية فرعية مكان ملكة لسانية أصلية، مع أن العامية لا تخلو ضمناً من هذه الملكة اللسانية الأصلية بل يستحيل أن تقوم لها قائمة تواصلية بدونها، بينما عملية الاكتساب تكون مواتية لأن المكتسب له مخزون من الاستعمالات الأساسية ذات الصلة الوثقى بكل مستويات الملكة اللسانية الأصلية.

ونتيجة لهذا، فإن المكتسب المعاصر أو منذ ظهور العاميات يقتني استعمالاته من ملكتين لسانيتين (إذا كان هذا المقتني متعلماً طبعاً) متداخلتين ومتضامنتين، والغرابة بالنسبة لهذا المكتسب تكمن فقط في كيفية التلقي لكل منهما باعتبار الواحدة محكية

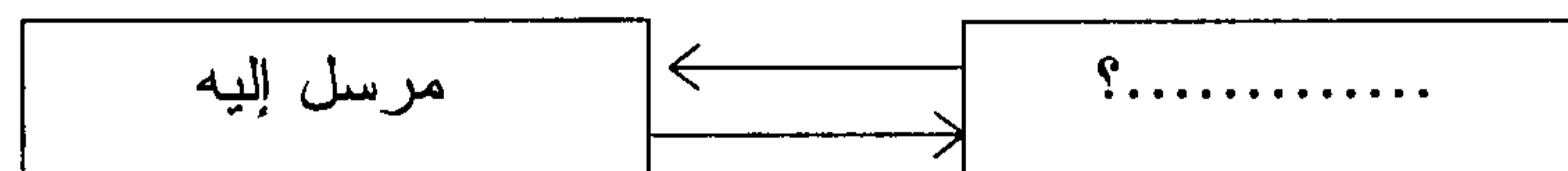
والأخرى مكتوبة، لكن هذا الغرابة التي ليست للفرد العربي عليها سلطان تقابلها ألفة نموذجية ضمنية كامنة في الاستعمال والعقل اللغوي، ومن هنا فإن المتعلم للمتكلمين يشمئز حين يسمع أو يعاين لحنًا أو خرقة اشمئزازًا طبيعيًا كان ذلك بينه وبين نفسه أم أمام غيره من متعلمي هاتين الملكتين، لأن تلك الألفة النموذجية الذهنية هي التي تحس آليًا بهذا الخرق فيكون رد فعلها سلوكيًا كمثّل عدم رضانا حين نرى ظاهرة غريبة تخل بالتوازن الاجتماعي، وهذا الاشمئزاز يتم على الكيفية :

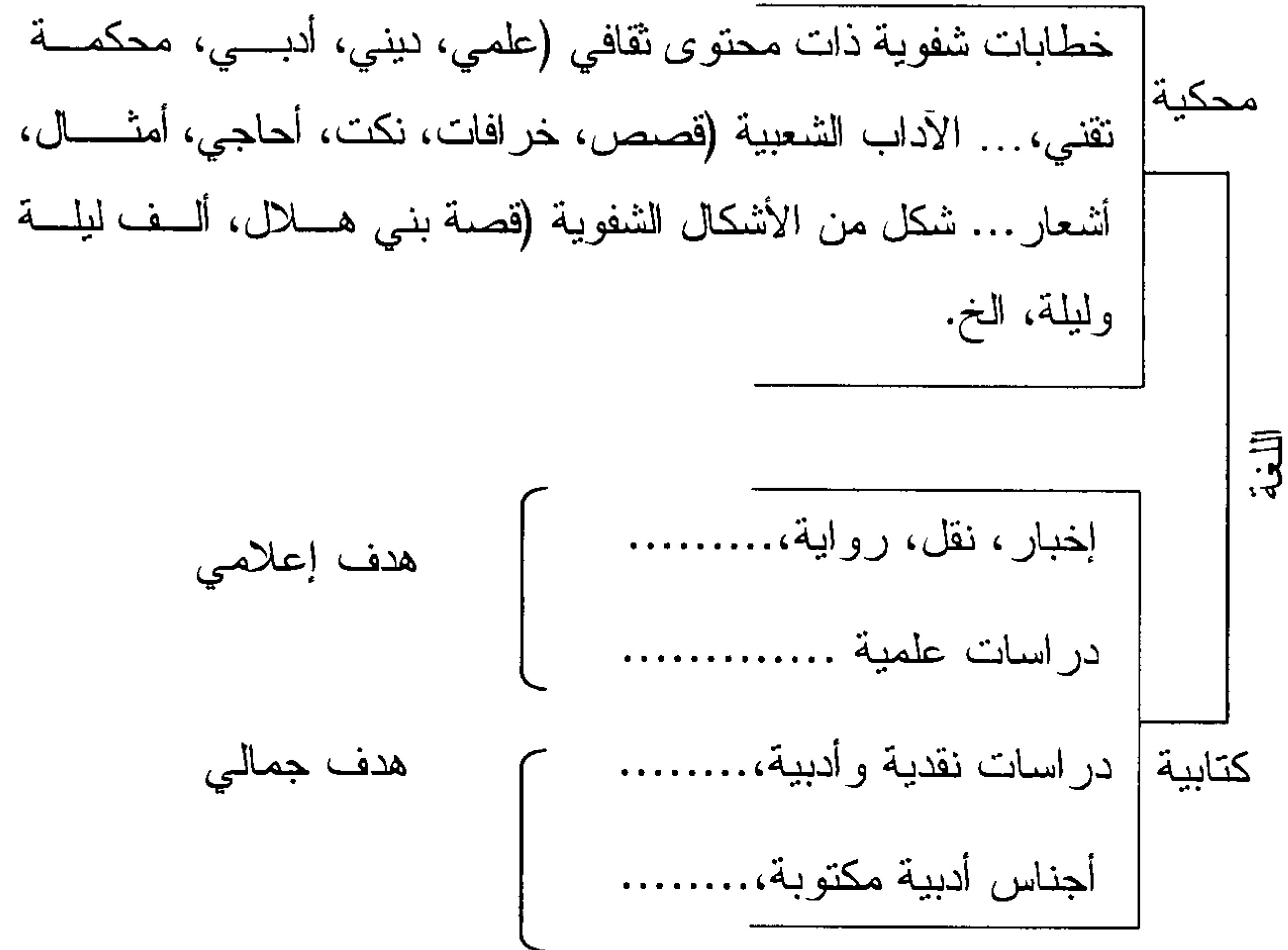


إذا كان الأمر يتعلق بخطاب شفوي، أو:



إذا كان الأمر يتعلق بتبليغ لساني عام، أما إذا كانت هذه الألفة الذهنية النموذجية تتم بين المتلقي لمرسلة مخروقة، فإن الانفعال نتصوره على نحو :





هناك بنية لسانية نموذجية واحدة

وهذه الألفة الذهنية النموذجية هي التي تمثل البنية العميقة داخل كل مجموعة لسانية على حدة، وليس من الضروري بل من المستبعد جدًا أن تكون موحدة على مستوى لغة واحدة، ولكنها — أي هذه البنية العميقة — تظل موحدة ضمانيًا بين كل المجموعات اللسانية على مستوى نفس اللغة، فالبنية السطحية لحجازي أو شامي قد تختلف عنها لدى مغاربي من حيث صياغتها وشكلها وعاداته المحلية في توليدها وتحويلها، لكنها من حيث البنية العميقة تظل ذات فضاء ضمني مشترك بل ومتضامن سواء شعر هؤلاء المتكلمون هنا وهناك أم لم يشعروا.

ولما كان الفرد العربي القديم يقتني من ملكة لسانية واحدة لم تكن له أكثر من بنية نموذجية، وما يتولد منها كان في الغالب الأعم نمطًا لسانيا واحدًا، إلا مجال الكيفية والإبداع، ومن ثم وقع المعبرون في هفوات لسانية في كل المستويات، ولم يجدوا من ينبههم علميًا إليها. وإذا كان النابغة قد نبّه على ما وقع فيه من إقواء على الفطرة، فإنما كان مصدر التنبيه من المدينة وليس من البادية ذات الملكة اللسانية الواحدة، وما يحكى من بعض الالتفاتات الأخرى للتركيب لم يكن أكثر، إن صح ذلك فعلاً، من إعجابات جمالية ساذجة، لأن البنية النموذجية لمجتمع قد تتعدى اللغة إلى أنماط أخرى من الحياة والسلوك.

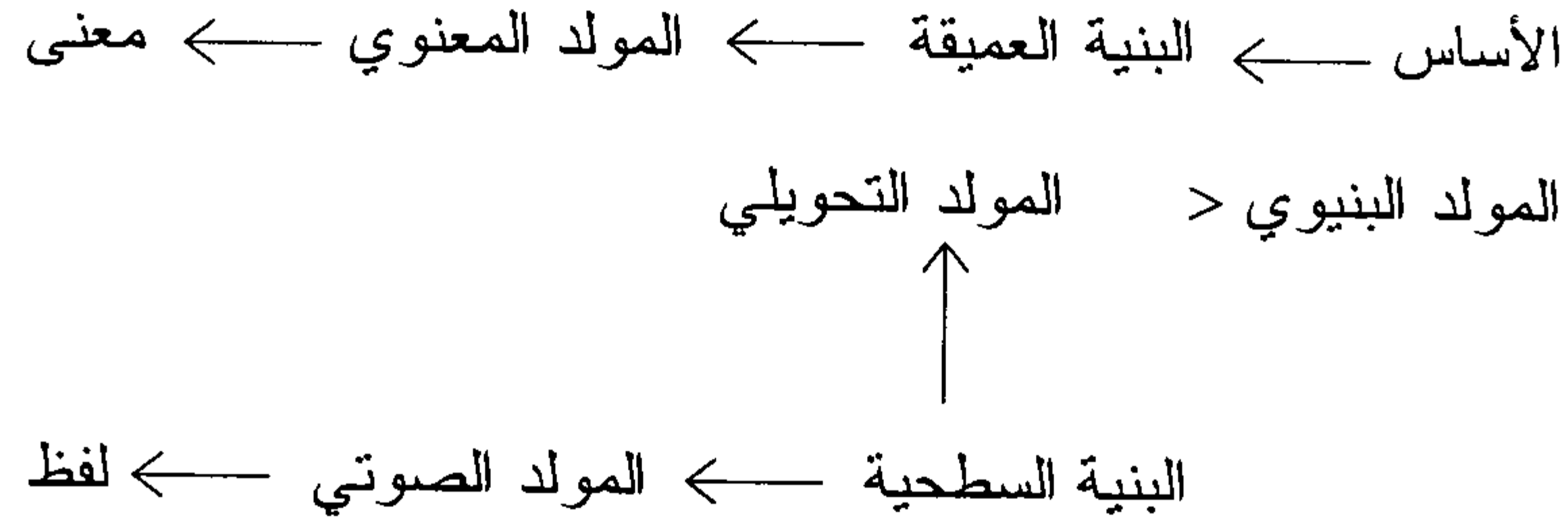
تنظيرات لسانية للغة الإنسانية

قراءة أولية

لقد سبق لنا خلال هذا العرض أن تعرضنا بشكل غير مباشر إلى مس خفيف من الحديث عن اللغة تبعًا لما كانت تقتضيه المادة والمنهج، وكنا نحاول التجنب عن هذا الموضوع ليقيننا بأن اللغة كوسيلة من وسائل التبليغ هي غير ما يحيط بها، وأكدنا على ظاهرتها الاجتماعية المتجلية في الاستعمالات وليست مختزنة في الأدمغة كما ذهب إلى ذلك سوسور، لأن الدماغ الإنساني يتعامل مع اللغة كمنظومة مجزأة إلى بنيات ذهنية نموذجية وليس معها كنظام كلي دفعة واحدة، وكم كان بعض العرب عباقرة حين قال: «كلام العرب لا يحيط به إلا نبي»¹، وهذا القول كما قال ابن

1. فقه اللغة، ابن فارس، ص.47.

فارس حري أن يكون صحيحاً¹ لم يمض أحد ممن ادعى حفظ اللغة كلها، وهي ملك للاستعمالات وحدها، وليست ملكاً أبداً أو حكراً على أدمغة معينة واكتسابها لا يكون من هذه الأدمغة المزعومة عند سوسور بل من الاستعمالات المباشرة التي تكون أو تشكل نموذجاً عميقاً مشتركاً لاستعمالات فضائية أخرى غير مباشرة أي الكلام في حد ذاته عملية إبداعية وليس فقط نمطاً من الإنتاج، لكنه مستويات، والرسم الذي قدمه تشومسكي للبنيتين العميقة والسطحية على هذا النحو².



غير مسوغ لدينا في شقه الأول الخاص بالبنية العميقة، إلا إذا قصد بهذا البيان تقريبها لنا من فضائها الغائب، لأن البنية العميقة في كل ملكة لسانية يفترض فيها أنها جاهزة وستكون حاضرة أو ماثلة أمامنا بمجرد التفكير العفوي (في الخطاب الشفوي العادي) أو الصناعي (في التعبير الكتابي، لا سيما المتكلف منه) للإقدام على تبليغ من الآن إلى الآخر أو العكس، لكن ليس من السهل تحديد البنية العميقة دائماً في هذه الحالة، إذا كانت هناك بنيتان

1. نفسه، ص. 47.

2. علم اللغة : دانييل مانيس : الموقف الأدبي، عدد 136، عام 1982، ص. 222.

متماثلتان أو أكثر، لكن المؤكد أنه لا تحضرنا، لا واحدة في توصلنا الطبيعي، وهذا هو الأهم بالنسبة لنا.

ولاحظنا فيما مضى (الفصل الفارط) كيف أن ابن خلدون قد فرق بين مفاهيم لسانية خطيرة من حيث البحث أو المنهج والاصطلاح لامن حيث طبيعة التواصل، مميّزًا بين اللغة وقوانينها.

وظلت اللغة منذ نهضة الأوروبين تخضع لتعريفات غالبًا ما تنتظر وفق أفكار واتجاهات منظريها، وكل نظرية لاحقة تفند أو تعارض النظرية السابقة، وليس في الأمر بدعة لأن هذه الأداة ليست حكرًا ولا وقفًا على زمن دون زمن.

النظرية البيولوجية والطبيعية

يجب الاعتراف بأن هذا المشكل لم يبق مطروحًا بحدّة ابتداء من المنعطف الثاني للقرن الثامن عشر أو بداية القرن التاسع عشر حيث تقدمت العلوم البيولوجية والطبيعية وعلم أمراض الكلام وعلم الحيوانات بشكل معتبر، مما مكن علوم اللغة تتاول هذه الظاهرة من وجهة علمية أكثر دقة لأنه ابتداء من هذه اللحظة شرع عدة لسانيين يباشرون أعمالهم بصورة تنكشف معها الأعمال، حيث اضطر اللسانيون إلى مراقبة خطواتهم العلمية والمنهجية وأحكامهم المسبقة أو الوهمية، وذلك بناء على هذا التطور الذي حدث في الأدوات المتحررة من الوهم خارج اللغة في حد ذاتها، وخاصة لدى اللغويين الألمان من بينهم أوقشت شليجل (Auguste shleicher) الذي حاول أن يؤسس شجرة سلالية

(arbre généalogique) للغات الهندية – الأوروبية، وكانت أطروحة شليجل على مبدأ أن كل لغة تتصرف مثلها يتصرف جهاز عضوي، يمكن له أن يحتتمل تطورات وتغييرات في بنيته نفسها، وفي لغات أخرى يمكن أن يمارس تأثيراً عليها، بالنسبة لشليجل، فإن اللغة موضوع طبيعي قابل لنفس الدراسة لنبته أو حيوان، و بهذا المعنى يجب أن تخضع إلى ملاحظة مدققة ومباشرة حسب منهج تجريبي¹.

وهكذا، فإن شليجل منذ أن نشر أطروحته عام 1863، سارت فكرته البيولوجية هذه في ألمانيا وخارج ألمانيا، وساد الدراسات اللغوية، اعتقاد بأن اللغة كالنبات والحيوانات تولد وتتمو ونهرم وتموت².

نلاحظ أن هذه النظرية تضعنا في واقع الأمر بأن شليجل كان متأثراً إلى حد مطلق بالعلوم الطبيعية، لكن اللسانيين رفضوا هذه الأطروحة، ولا سيما منذ ظهور كتاب اللسانيات العامة لسوسور وحلقات لغوية هنا وهناك، ولم يعد اليوم أحد يعترض على أن اللغة ماهي إلا إحدى الوسائل المتواضع عليها للتبليغ بين الناس، ولربما كانت الوسيلة الوحيدة وإن اختلفت أشكال التبليغ.

ومن غير المعقول قبول مقولة شليجل، لأنه لا يمكن اعتبار ظاهرة حي متحرك نظيراً لجسم أم كائن آخر جامد، لأن لغة ليس لها أي استطاعة لتكون متحركة أو حية إلا داخل كائن آخر، وهو

1. راجع التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص. 104.

2. Bertil Malbe, *Les nouvelles tendances de la linguistique*, Presses universitaires de France, Paris, 1972, p. 23.

الإنسان لكن أي إنسان. ويمكن أن نتصور، وهذا أبعد ما يمكن، فكرة أخرى بأن هذا اللغوي الألماني لم تكن له نية غير تفضيله للوسائل العلمية الجديدة الأكثر فعالية والتي تمكننا من معالجة اللغة وفق أعمال تجاربية بنفس الفعالية التي نعالج بها ظواهر أخرى في عالم الطبيعة.

وعلى الرغم من هذا التصور الأخير المحتمل من بعض الوجوه، فإن النوع المتحرك أو الحي ينبغي أن يبقى دائماً في محور معارض لنوع آخر جامد، ذلك أننا على المستوى التطبيقي لا نعالج النوعين بنفس الكيفية، فنحن حين ندرس نبتة نعالجها بكيفية لذاتها، لأن نبتة، على الرغم من هذا تملك نوعية ظاهرة شيء متحرك أو حي في عالمها النباتي بتباين مع شيء آخر لا يملك أي نوعية للحياة، ربما من أجل هذا فإن كل المناهج المتعاقبة التي مارست هذه الأداة التبليغية بقيت مذهلة أمام محاولة فصل اللغة عن محيطها حتى خلال دراستنا إياها، ومن هنا أشار سمير نيتسكي إلى أن اللغة الداخلية تعد ثانية، بالنسبة إلى اللغة الخارجية، وفي مسار اللغة الداخلية أن الشكل المادي لها، أي الجرس الصوتي للكلمة يحل محله الإدراك النفسي لهذا الجرس الصوتي الذي يحقق نطق الكلمة¹ ويعلق العلامة السوفياتي (سابقاً) بانفيلوف (painflov) قائلاً: «على أن رأي "سمير نيتسكي" كما أوردناه آنفاً، يتضمن مع ذلك فكرة صائبة، وهي أنه من الخطأ اعتبار اللغة الداخلية شيئاً سابقاً للغة

1. دراسات لغوية في ضوء الماركسية، ترجمة، د. ميشال عاصي، ص. 42.

الخارجية، لغة النطق والواقع أننا إذا اعتبرنا اللغة الداخلية واللغة الخارجية من وجهة نظر العلاقات التاريخية فيما بينها، فمن المؤكد أن أولى عمليات التفكير لدى الأسلاف البدائيين للإنسان كانت تتم فقط على صعيد اللغة الخارجية، وليس إلا فيما بعد، وكلما تطورت وترسخت عاد التلفظ في أعضاء جهاز النطق لدى الإنسان البدائي، كانت تظهر إمكانية انتقال التفكير إلى صعيد اللغة الداخلية¹.

وربما لاحظ هذا أيضاً جوزاف فندريس حيث بث شكواه :
«يقولون دائماً بأن مشكل أصل اللغة ليس مشكلاً ذا طابع لساني مع أنه تعبير الحقيقة... معظم من كتبوا عن أصل اللغة منذ مائة عام لم يكونوا إلا تائهين،.. إن اللسانيين يدرسون اللغات التي يتكلمون والتي يكتبون»² لكن فندريس نفسه أعطى اللغة أكثر من تعريف تبعاً لتنوع وسائل التبليغات المختلفة والمتشعبة لمفهوم اللغة باعتبار أن فندريس يعتقد أن هناك عدة لغات.

ودون استبعاد كلي للعوامل الخارجية المنتمية إلى المجموعة الإنسانية التي تمارس هذه اللغة أو تلك، فإنه مما يبدو لي واقعيًا أن الأكثر عقلانية أو القريب من الاحتمال الممكن للغة لا يمكن إلا في اللسانيات نفسها، ولهذا يحاول بعض علماء اللسانيات التطبيقية اليوم أن يعرف اللغة تعريفاً متزامناً أي من خلال الاستعمالات اليومية : "لنحاول تعريف اللغة انطلاقاً من تلك التي

1. المرجع السابق، ص. 4.

2. Edward Sapir, *Le langage*, Petite bibliothèque Payot, Paris, p. 17, J.V.

تمارسها يومياً : إنك تتكلم الفرنسية تلقائياً بفرط العادة، وإنك لا تفتحص عندما نتكلمها ماذا تصنع، إنها مجموعة من الحركات التي تعرف تنفيذها، لكنك لا تعرف كيف تنفذها¹.

إن كل تعريف للغة وتطورها خارج الميكانيزمات الاجتماعية يبقى حقلاً وهمياً «إن المشكل كما هو مطروح علينا اليوم، هو نفسه كما كان منذ ستين سنة، وأن العوامل التجريبية التي تشترط التغييرات التاريخية هي دائماً غير مؤكدة، خمسة أسئلة تمكن من تلخيص المشاكل الأساسية لتطور اللسانيات :

1. هل التطور اللساني موجه ؟
2. ماهي القيود الشاملة التي تعترض التغيير اللساني ؟
3. ماهي الأسباب التي تجعل التغييرات اللسانية الجديدة تبرز بشكل غير منقطع ؟
4. ما هي الاواليات لهذه التغييرات ؟
5. هل التطور اللساني يملك وظيفة من الاقتباس ؟².

إن النزعة الطبيعية التي سادت المدرسة الألمانية وتفشت عند لغويي القرن التاسع عشر، حتى ولو لم يصرحوا بذلك علناً لم تكن تستجيب فقط إلى تطور العلوم الطبيعية بل حتى إلى المنطق الأرسطي الموروث، وحتى الذين هاجموا هذا الاتجاه الطبيعي التطوري الذي كان مصدره داروين وشليجل فإنهم لم يستطيعوا

1. D. Gérard, *Linguistique appliquée et didactique des langues*, éd Armand colin.

2. William Labov, *Sociolinguistique*, les éditions de minuit, p. 231-232.

أن يتخلصوا منه كلياً، من ذلك أن ذلك أن وليام داويت وايتيني الذي يوصف بأنه ذو فكر ثابت ومناضل والذي «عارض كل المذاهب الدارجة في عصره، لقد عارض شليجل الذي جعل من علم اللغة علماً طبيعياً يفسره النموذج الدوراني، وعارض ماكس مولر الذي برع في الكتابة فيما كانت معالجة سطحية جداً، كما عارض أيضاً تبقى في ذلك الوقت من تأثير هومبولد ونظريته التي ترى في اللغة ميتافيزيقياً لعرقية الشعوب والأفراد»¹ عاد فتورط في المبدأ نفسه الذي انتقد فيه الآخرين فهو قد تساءل، كيف تعمل رموز اللغة؟ ثم يجيب «اللغة كالجسم العضوي، فهو ليست تلاحق جزئيات متشابهة، بل هي مجموعة أجزاء يرتبط بعضها ببعض ويعاضد بعضها البعض»² ويقول في موضع آخر مشابه: «اللغة، الحقيقة، نظام كبير من البنى المعقدة جداً، والمتوازنة، وهي تقبل تماماً لمقارنة مع جسم منظم»³.

غير أن انتقادات وايتيني لشليجل وماكس موسر بأن اللغة واقعة اجتماعية وليست واقعة طبيعية وصفة بيولوجية، لم تجد كثيراً، ووصلت هذه النظرية البيولوجية أوج متهاتها على يد عالم لغوي آخر هو دار ميستيتار الذي قال في كتابه (حياة الكلمات: «الأمر البديهي اليوم هو أن اللغات عضويات حية، حياتها حقيقية

1. علم اللغة ص. 14.

2. نفس المرجع، ص. 19.

3. نفس المرجع، ص. 19.

ويمكن أن تقارن مع حياة عضويات النبات والحيوان، رغم طابعها الفكري المحض»¹.

النزعة العرقية

وربما كانت هذه النزعة البيولوجية إزاء اللغة أسلم منهجياً من كونها ليست منغمسة في رؤية مثالية ولا في ورطة إيديولوجية، فشليجل مثلاً كان يعتبر بأن اللغات كان لها تطور مستقل عن العضويات الحية ثم حاول أن يرسم تطور اللغات بواسطة السلالات، فقسم اللغات في العالم إلى ثلاثة أنواع² :

1. لغات عازلة أو متقطعة (langues isolantes)

2. لغات مركبة أو لاصقة (langues Agglutinantes)

3. لغات متصرفة أو معربة (langues flexionnelles)

فبالنسبة إليه «كل عائلة لسانية كانت تمر تترى من مرحلة إلى أخرى لتصل في النهاية إلى أوجها وفي حالة أكثر صفاء»³.

1. نفس المرجع، ص. 17.

فالأولى أن تكون العبارات فيها مؤلفة من كلمات مبنية ولا سيما وحيدات المقطع مثل الصينية، والثانية تكون مركبة أو لاصقة مثل التركية، والثالثة تكون متصرفة مثل العربية.

2. يراجع، (C.L.G) Carol Sanders, *Lire aujourd'hui*, p. 10

وقارن ب — : التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص. 112-114.

3. نفس المرجع السابق.

وعلى ما يشتم من أثر دارويني في فكرة شليجل الأخيرة، فإن النظرية البيولوجية التي دحضها اللسانيون المحدثون كانت - كما أشرنا - منهجية إلى حد ما، والخطأ أو الصواب يبقى في فكرة النظرية فقط، ومع ذلك تظل أسلم نسبياً من الناحية المعرفية إذا ما قيست بنظرية بعض علماء الإثنوغرافيا، «وخصوصاً في ألمانيا، متعجلين جداً في إقامة الصلة بين بعض البنيات اللغوية وبين مجموعات من الظواهر الاجتماعية المدروسة في صورة سطحية وبالغوا في اعتماد وجهة النظر المرتكزة إلى "علم نفس الشعوب"»¹، مما جعل بوريس سربرنيكوف يخرف قائلاً: «وهكذا فالمجتمع الذي يبني الشيوعية في هذه الفترة يمتلك لغة أكثر تطوراً بما لا يقاس من لغة عصر العشائر والقبائل»². وهو يريد بهذه الكيفية الإيديولوجية أن يقارن أثر الشيوعية وقوتها بأثر وقوة الثقافة الإسلامية التي تبنتها الشعوب المفتوحة، لأنه قال بعد حين في نفس السياق: «ومن هنا فإن وجود عدد وافر من مفردات عربية في اللغة الإيرانية، يمكن تفسيره على أساس التأثير العميق الذي مارسه الإسلام والثقافة العربية»³.

وهذه بديهية لا ينكرها أحد، لكن ما نراه كذلك أن اللغة ليس إجبارياً أن تؤثر فقط بفعل عوامل تاريخية وسياسية ودينية...

1. دراسات لغوية في ضوء الماركسية، ص. 74.

2. نفس المرجع، ص. 10.

3. نفس المرجع، ليس إجباراً أن يشترك في انتشار لغة أو كلمات منها بفعل علاقات تاريخية وسياسية بين الشعوب، ص. 10.

هناك شعوب كثيرة تبنت كلمات عربية عديدة ولم تكن لها علاقة مع العرب، لكن اللغة عنصر حضاري مستقل حتى عن ثقافتها الجغرافية أحياناً، وهي إن كانت إنتاجاً تاريخياً معقداً فليست في الآن ذاته إنتاجاً مادياً، ليس هناك شئ أقل سهولة من نقل لغة، وليس مشروطاً لها أن تنقل بحدث جماعي أو تاريخي عظيم.

عموماً، إن النزعة العرقية بدورها سادت عقليات قديمة وجديدة تحت تأثير الإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا، محاولة لإيجاد «علاقة بين اللغة وبين عقلية الشعب الذي يتكلم هذه اللغة أو تلك، وحاولوا أن يجدوا في اللغة ولا سيما في تركيبها، أي في صرفها ونحوها، انعكاساً للميزات العرقية والأخلاق والمثل والنظرة إلى الحياة عند الشعب الذي يتكلم هذه اللغة»¹ حتى إن إرنست رينان حكم حكماً بهلوانيا على نقص العقلية لدى الشعوب السامية من خلال دراسته للغة العبرية بوجه خاص، وهناك ألماني آخر بحث ألفاظاً مختلفة وما تعكسه من صور ذهنية متطابقة حسب زعمه، والشعب الذي يتكلمها، ومن الألفاظ لفظة (intéressant) (مفيد أو مثير الاهتمام) حيث يقول: «إن هذه اللفظة الغربية لا يمكن أن تنقل إلى لغة سامية، وإذا نقلت فإنها تفقد الناحية الروحية العقلية التي تتضمنها اللفظة الغربية، ويعزو هذا العجز عن وضع لفظ مدلوله مدلول لفظة (intéressant) إلى طبيعة العقل السامي الذي ينقصه الشغف العقلي واللذة الروحية اللذان تعكسهما اللفظة الغربية»².

1. النظريات في اللغة، أنيس فريجة، ص. 27.

2. المرجع السابق، ص. 28.

شكوى وايتني

ولربما كانت شكوى وايتني لا تبتعد كثيرا عن هذه الأفكار السطحية والسادجة أعلاه، فبعد اعترافه بأن ألمانيا هي مدرسة فقه اللغة المقارنة أضاف أن «علماء هذا البلد أقل براعة فيما نسميه علم اللغة» إذ نجد لديهم (كما لدى غيرهم) نوعا من الخلط في الآراء فيما يخص نقاطا ذات أهمية أساسية، كما نجد لديهم بعضا من عدم الثبات في المبدأ واللامبالاة والبعد عن المنطق لدرجة يمكن أن نقول معها: إن علم اللغة لم يتكون عندهم بعد¹.

ردود سابير على هذه النزعة

ولقد رد على هذه النزعات العرقية إدوارد سابير ردا مفصلا، ولا يمكن أن نثبت هنا كل هذه الردود المصحوبة بأمثلة وبراهين تتعلق ببلدان وقارات ولغات بدائية وواسعة الانتشار كاللغة الإنجليزية وعلاقتها بالخليط الذي يتكلمها ماضيا وحاضرا، ولكن نجمل فكرة هذا العالم اللغوي الموضوعي البعيد عن كل تعصب². بعد أن يصرح إدوارد سابير بأن اللغة تقتضي محيطا أو بيئة، يذكر بأن الشعب الذي يتكلم هذه اللغة ينتمي إلى عرق أو عدة أعراق أخرى من انتمائه لمجموعة تتميز عن مجموعات أخرى بخصوصيات فيزيائية «إن اللغة لا يمكن لها أن تكون مفصولة

1. علم اللغة في ق 20، ص. 14.

2. الغريب أن كتابه القيم اللغة (le langage) والذي يعد موسوعة في علم اللغة لم يترجم - فيما اعلم حتى الآن - إلى العربية في الوقت الذي ترجمت فيه كتب لغوية كلها في مستواه.

عن الطابع أو الأخلاق، أي أنها على صلة بتجمهر من العادات والاعتقادات التي تعتبر إرثاً اجتماعياً تحدد أثر وجودنا، إن الأنثروبولوجيين دأبوا على دراسة للإنسان تحت ثلاثة أشكال: العرق، اللغة العادات والأخلاق»¹.

إن العلم، كما قال سابير، أكثر واقعية، بحيث ليعرف إذا ما كانت هذه الأشكال الثلاثة من التصنيفات صحيحة (العرق، اللسان، والطبائع) أولاً، «إذا كان تجمعها لازماً لطبيعتها أو هي فقط مسألة تاريخية، إن الجواب على هذا السؤال لا يشجع الذين يطلقون أحكاماً مسبقة وعاطفية لصالح العرق، إن المؤرخين والانتروبولوجيين يجدون بأن الاعتراف والألسن والطبائع ليست متوازية إجبارياً، بحيث مناطق توزيعها تتقاطع بطريقة مذهلة جداً، وأن تاريخ كل واحد منها له ميل لأن يكون مستقلاً عن الآخرين، إن الأعراق تمتزج بشكل مختلف عن الألسن؛ من جهة أخرى، فإن الألسن يمكن أن تتمدد أبعد بكثير من مهدها الأولي كاسحة أراضي أعراق جديدة ومناطق حضارية جديدة، إن لساناً يمكن له حتى أن يخمد في منطقته الأولية ليدوم بين العشائر الأكثر عداوة لمن كانوا يتكلمونها أصلاً، يجب أن تقتنع، مرة واحدة، بأن العرق، في معناه الوحيد والمفهوم، والذي له معنى بيولوجي، هو مختلف مطلقاً عن تاريخ ألسن وحضارات وهذا التاريخ غير مفسر أبداً حسب العرق ولا حسب القوانين الفيزيائية أو الكيماوية»².

1. Edward sapir, *Le langage*, Petite Bibliothèque Payot, Paris, p. 203.

2. السابق، ص. 204، وواصل إلى غاية، ص. 215.

ويرد سابير ضمناً على هذه النزعة العرقية التي تولدت عنها، كما هو الشأن في ألمانيا، ولدى عقول مفكرين غربيين متعصبين وعاطفيين، نزعة مثالية جوفاء، قادتهم إلى الشعور بالتفوق والعظمة حتى تكونت في نفوس بعض قادتهم روحاً عدوانية، إن اللغويين الألمان مثلاً ليسوا أبرياء عن مسؤولية هتلير.

المهم أن الدراسات الدقيقة والنزيهة أثبتت منذ مدة بأن أقسام اللسانيات والتاريخ الذي صحب هذه الأقسام خيبت آمال هذه النزعة العرقية التي تربط اللغة وخصائصها بعرقية عرق من الأعراق، وباتت اليوم أنها اعتقادات عاطفية تغمرها أهداف ميتة وغامضة في حق شعوب وعشائر لم تنهض على أقدامها بعد.

فرديناند دي سوسور مؤسساً للسانيات الجديدة

إن التعريف الأكثر علماً ووضوحاً وإقناعاً حتى الآن للغة هو تعريف فرديناند دي سوسور الذي حاول أن يطوي صفحات اللسانيات التاريخية والدراسات المقارنة ونظريات قديمة بالنسبة إليه مثل نظريات بوررويال أو معاصرة مثل نظريات النحويين الجدد أو الشبان الذين تصادف مع إنشائهم هذه الجمعية الفلغية وهو في ألمانيا التي كانت في هذه الفترة مركزاً لدراسات اللغة الهندية- الأوروبية، وفي جامعة ألمانيا العريقة (leipzig) نشر سنة 1879 مذكرة حول "النظام البدائي أو الأولي للصوائت في الألسن الهندية - الأوروبية" وبعد سنة حصل على دكتورته كان مبحثاً "الاستعمال المطلق لحالة الإضافة في السنسكريتية" الذي

سينشر عام 1881، وكان تدريسه للقواعد المقارنة التي استفاد منها كثيراً في كتابه الذي بعد موته من قبل طلبته النبهاء، واعني به "محاضرات في الألسنية العامة، ومنذ عام 1907 صار أستاذاً في اللسانيات العامة.

ويظهر أن شعور سوسور بمعارضة مناهج وأفكار معاصريه لم تتأخر إلى غاية بداية القرن العشرين، فمنذ صار عضواً في الجمعية اللسانية الفرنسية بباريس كتب مقالة مما جاء فيها «كنت أرتعد في كل خط أريد أن أقول فيه شيئاً لن يكون متفقاً مع بوب (Bopp) الذي صار معلمي الوحيد»¹.

ويقول كارول ساندر (Carol Sanders) محلل ودارس كتابه في اللسانيات العامة: «يظهر أنه (سوسور) لو أحب أن يأخذ الجنسية الفرنسية لنال عضوية كولييج دوفرانس (Collège de France) في بريال (Bréal)»².

ومنذ أن ظهرت مذكرته ظهر رأيه في المسألة اللغوية التي كانت الدراسات المقارنة مهيمنة عليها، حيث كان في هذه المسألة شيئين اثنين: «ضرورة اعتبار اللسان كنظام أولي من دراسته كوحدة منفصلة، وضرورة إقامة عمل نظري»³.

ونحن لانريد أن نخوض طويلاً لعرض أفكار سوسور، فهو موسوعة فكرية لسانية قائمة بذاتها على الرغم من الانتقادات التي

1. C.L.G Carol Sanders, *Lire aujourd'hui*, p. 10.

2. المرجع السابق، ص. 7.

3. نفس المرجع، ص. 11.

وجهت ولا تزال توجه له، ولكن أفكاره من الناحية المنهجية ستبقى مع ذلك مؤثرة إلى حد كبير، ولا يكاد يسلم منها لساني معاصر واحد، ولذا سنركز حديثنا عما جاء عنده في هذه العجالة عن اللغة تماشيًا مع عملنا، على الرغم من أن سوسور يتكلم أحيانًا عن موضوع وأنت تقرأ فيه المنهج، وأحيانًا أخرى يتحدث عن نقطة منهجية فتقرأ فيها وكأنه يتحدث عن المادة، ولذلك فقراءته يجب أن تكون حذرة خاصة في بعض النقاط التي أثارها ولم تكن نضجت بعد أو كان سبق إليها منذ بانيني مرورًا بأرسطو ثم اللغويين العرب «ناهيك عن أنه ذهب مذاهب شتى فيما خلف لنا من حواشي وتعليقات حول طائفة من المسائل»¹.

بعد تأكيد سوسور على أن فرانس بوب لم يكن أول من أوجد الدراسات المقارنة حتى وإن أدرك العلاقات التي يجمع بينها رحم مشترك، ينتقل إلى ذكر الأخطاء التي وقعت فيها الدراسات المقارنة لاحتوائها أحيانًا على المفهوم البيولوجي «ولـهذا فإن النتيجة كانت تفلت من بين أيدي هؤلاء المقارنين، لكونهم كانوا يعتبرون تطور لغتين مثلما كان يفعل عالم النبات بنمو صنفين نبات،... وهذا المنهج المقارن استثنائيًا يستجر مجموعة من التصورات الخاطئة لا تتفق مع أي شيء إطلاقًا على أرض الواقع، وهي فوق ذلك غريبة كل الغرابة عن الشروط الحقيقية لكل لسان»²؛ منوهاً في الوقت نفسه بمدرسة النحويين الشبان

1. مدخل إلى اللسانيات، رونالد إوار، ص. 46.

2. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 14.

الذين لم يعد ينظر على أيديهم إلى اللغة كجسم يتطور بذاته، ولكن كنتاج للفكر الجمعي للمجموعات الألسنية¹.

إن مذهب سوسور ينبسط كله على التخالفات التي ينبثق منها في النهاية تصور متحد بشكل من أشكال لتحالفات، سواء تعلق الأمر بالمنهج أم المادة، وتتهمه بعض المراجع بمرجعية عقائدية مسيحية، وأن هذه الثنائيات تعود إلى عقيدته أكثر مما تعود إلى عقليته.

تقسيم دي سوسور للغة

على أي حال، يقسم سوسور اللغة (le langage) إلى لسان (langue) من مجموعة لسانية، بينما الكلام هو عمل أو فعل الفرد الذي يستعمل هذا اللسان ليتكلم أو يستمع، يجب على اللساني أن يلفت انتباهه قبل أي شيء إلى اللسان (la langue)² أو أن اللسان هو نظام تزامني (سانكروني) من العلامات، ولمعرفته يجب أن ندع اللسانيات التاريخية جانباً «بمجرد أن ننسى التغييرات التي تعتري كل لسان، نستطيع أن نلاحظ التعارضات والعلاقات التي تعمل على أن يكون اللسان نظاماً»³، أما اللغة (le langage) فهي التكلم الإنساني في كليته والذي، كما لمحنا أعلاه، تنقسم إلى لسان وكلام⁴.

ولكي يقسم سوسور اللغة إلى لسان وكلام التجأ إلى تمييز آخرس، أي بين الدراسات الدياكرونية التي ترسم تطور اللسان

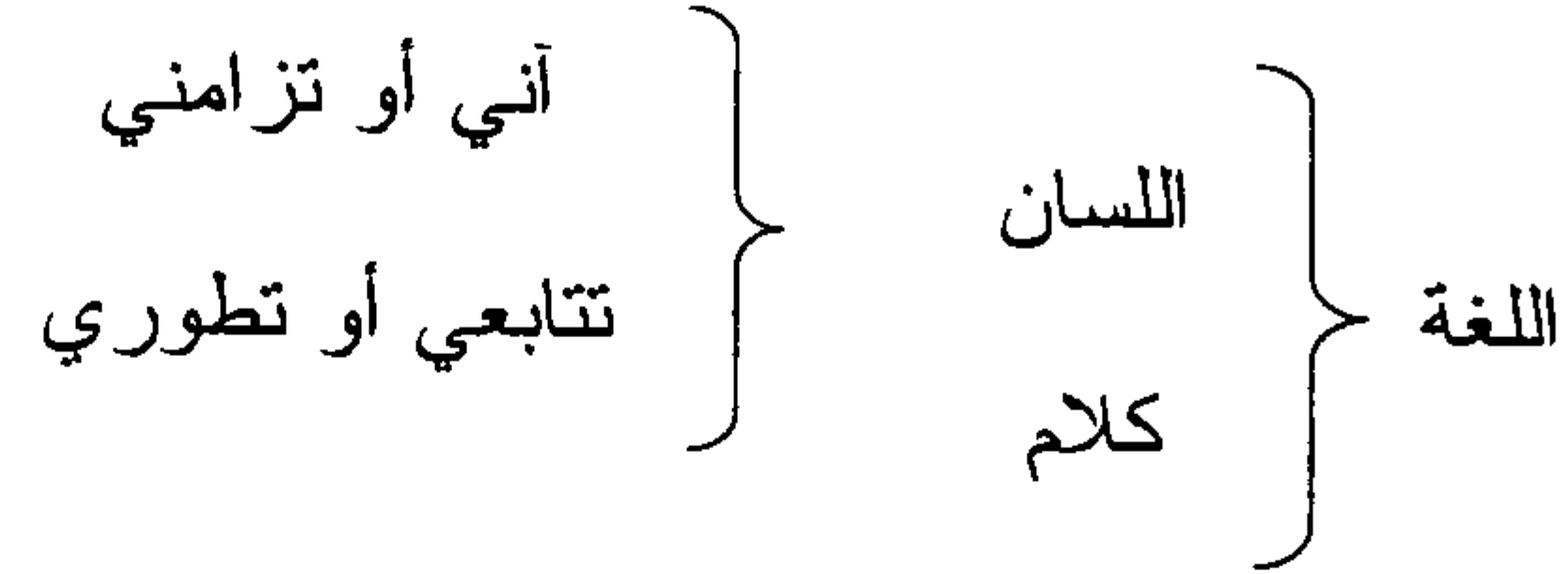
1. نفس المرجع، ص. 15-16.

2. C.L.G Carol Sanders, *Lire aujourd'hui*, p. 17.

3. المرجع السابق، ص. 18.

4. نفس المرجع، ص. 6.

على المحو التتابعي والدراسة السانكرونية التي تتخذ نظام اللسان
هدفاً لها في لحظة معينة على المحور الآني :



إن سوسور يعني بهذا التقسيم أن نميز في لغتنا نفسها بين
المجموعات المتداعية الغائبة منها وهي مجموعة الوحدات
المتوفرة في الذاكرة، وكل مجموعة منها تشكل المحور العمودي،
أما المجموعات الحاضرة فإنها تؤلف المحور الأفقي.

ولتعرب هذه المفاهيم على حقيقتها بشكل أكثر لمسًا نحيل
مباشرة على نصوص سوسورية، حتى وإن كانت تحاليل بعض
اللسانيين المتأخرين لنظريات سوسور ليست أقل أهمية من
نظريات سوسور نفسها حيث أضفت عليها بعض اللمسات
المطلوبة التي زادت وضوحًا، هذا في القراءات الغربية، أما في
القراءات العربية فإنها متشعبة في مفاهيمها ومتباينة خاصة في
مصطلحاتها¹.

اشكالية المصطلح

وهذه مسألة عويصة وخطيرة في المصطلحات اللسانية بشكل
عام والتي ترجمت وأصبحت متداولة بين قراء العرب، بينما من

1. انظر مثلاً : محاضرات في الألسنية العامة، ص. 121.

ترجموا كتاب فندريس (le langage) قابلوا عنوانه بـ "اللغة" ولعل هذه المسألة أي الفرق بين (langue) و (langage) ستتضح إلى حد ما حين نشير إلى مفهوم اللغة عند اندري مارتيني، ولذلك أجد نفسي أحيانا أستعمل المصطلح الأجنبي كما هو في وضوحه مع ما فيه من تقزز بالنسبة للطبيعة الصوتية في العربية على أن أستعمله معربا أو مترجما وهو غامض أو مضلل وعلى هذا، فإن بعض المصطلحات التي ترد هنا في توضيح الفرق بين هذه التقسيمات وخاصة بين اللغة واللسان، والتي نستقيها من مراجع عربية أو أجنبية مترجمة إلى العربية فيها ما فيها من بعض التحفظات.

اللغة جزء جوهري بين اللسان

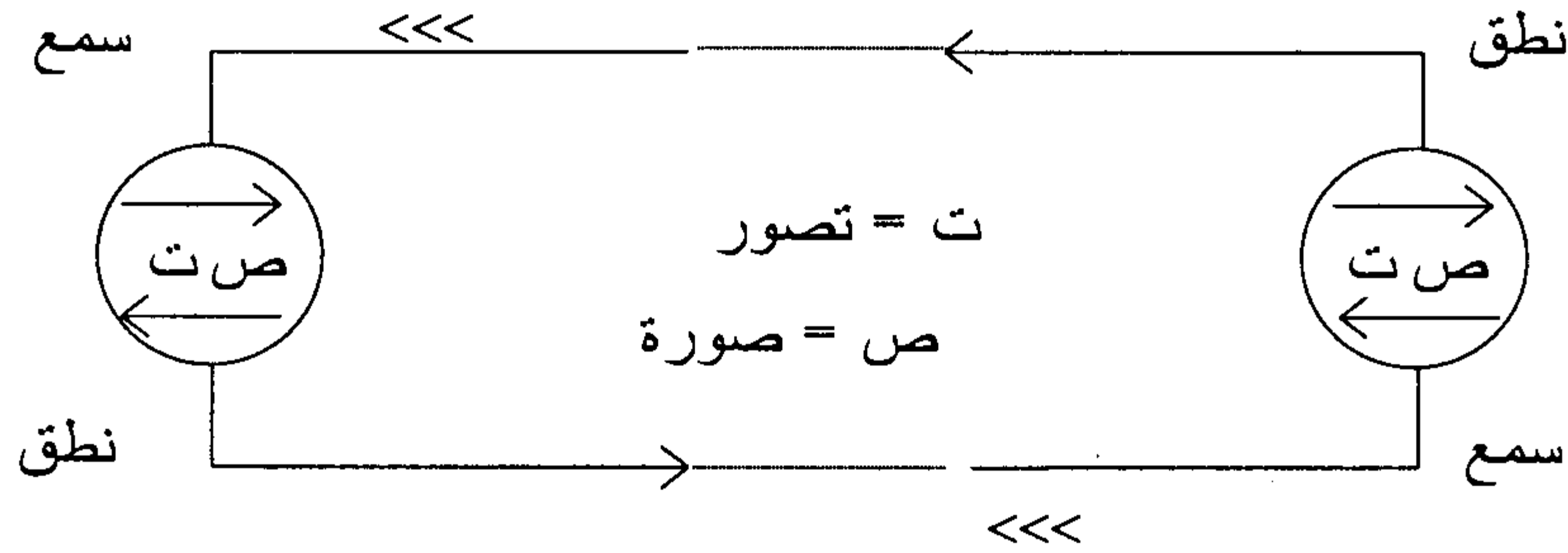
إن هذا اللساني يرى أن اللغة جزء جوهري من اللسان إلى غير ذلك من التعريفات الجزئية لها والمتباينة في أغراضها يصعب إيجازها في كل حين، إذ يقول: «ولكن ما اللغة؟ ففي نظرنا لا بد من التمييز بينها وبين اللسان وصحيح أن اللغة ليست سوى جزء جوهري محدد منه، وهي في وقت واحد نتاج اجتماعي لملكة اللسان، وتواضعات ملحة ولازمة يتبناها الجسم الاجتماعي لتسهيل ممارسة هذه الملكة لدى الأفراد، وإذا ما نظرنا إلى اللسان ككل فإننا نجد تعددا في الشكل واختلاطا فيه، وهو أي اللسان، يمتد إلى أصعدة مختلفة، فيزيائية وفيزيولوجية ونفسية، وذلك في آن واحد، كما ينتمي إلى المجالين الفردي والاجتماعي وفوق ذلك، فإنه يصعب تصنيفه في أية فئة من الوقائع البشرية، وما هذا إلا لقصورنا وعجزنا عن معرفة اكتشاف وحدته.

وعلى العكس من ذلك، فإن اللغة كل في حد ذاتها، ومبدأ للتصنيف، وما أن نوليها المكان الأول بين وقائع اللسان حتى ندخل ترتيبا طبيعيا في مجموعة تتمرد على أي تصنيف آخر.

وإزاء هذا المبدأ من التصنيف، فإننا نعارض بالقول : إن ممارسة اللسان لتعتمد على قدرة تكسبنا إياها الطبيعة، في حين أن اللغة شيء اتفاقي مكتسب ولا بد أن تخضع للغريزة الطبيعية بدل أن تعلق عليها¹.

مخطط سوسور التواصلي

وفي نظر سوسور أي اللغة هي التي تساهم في دراسة اللسان بل هي التي تصنع وحدته، وأن التخاطب باللغة يتم بهذا الشكل :



غير أن مخطط سوسور هذا يظل منقوصا، لأن التمييز بين الكلام واللسان يقتضي التمييز أيضا بين الرسالة أو المرسل اللغوية وبين الشفرة لتلقي هذه الرسالة عن باث ما تجمعنا به رموز مشتركة، ثم هناك القناة التي عبر عنها سوسور زمنيا ولم

1. المرجع السابق، ص. 21.

يذكرها تصريحاً، فالقناة التي تربط المرسل بالمرسل إليه هي القاعدة الفيزيائية التي تعمل على نقل إشارات من يرسل، ولذا فإن مخطط جاكبسون يظل أوفى من مخطط سوسور في هذا المضمار، ولقد سبق أن استوحيناها فيما مضى.

قراءة دانييل مانيس في التمييز بين اللغة والكلام

ومن الذين حللوا نص سوسور السابق للتمييز بين اللغة والكلام دانييل مانيس إذ يقول: «إن التمييز الذي أقامه سوسور بين اللغة والكلام أمر جوهري من الناحية المنهجية لأنه يهدف إلى تمييز موضوع علم اللغة ذلك لأن حقيقة الموضوع لا تتفعل عن المناهج التحليلية التي تطبق عليه، فهو يرفض أن يكون الكلام موضوعاً للعلم لأنه متعدد الأوجه فردي ولا يمكن توقعه وبالتالي يستحيل تحديده، أما اللغة فهي — على العكس من ذلك — ذلك الرصيد الداخلي الذي يمتلكه كل فرد من الجماعة، وليس للفرد عليها أي سلطان ولا يستطيع خلقها أو تعديلها، لأن اللغة بمشكلها الاجتماعي لا توجد عند الفرد إلا جزئياً ولا تكتمل إلا عند الجماعة»¹.

إن هذه الثنائية موجودة عند هلمسليف كتعارض أعم في كل نظام إشاري بين السيرورة (Procés) والنظام اللذين يستدعي كل منهما وجود الآخر، وتوجد كذلك عند تشومسكي في النحو التوليدي بين القدرة والإنجاز.

1. الموقف الأدبي (العدد السابق)، ص. 218.

أما فيما يخص اعتبار اللغة – لا الكلام – موضوعاً للعلم، فإن دانييل مانيس يعلق : «إن اللغة ليست بالشرح المشخص، ولا تقع بالتالي تحت الملاحظة العلمية، ونحن في حاجة إلى استخلاصها من الكلام، وهذا بدوره لا يوجد، لا بفضل وجودها الضمني الذي يحدد كل صيغته الممكنة»¹.

تعريف دي سوسور للغة

– تشتمل دراسة اللسان جزئيين : أولهما جوهري، وغرضه اللغة التي تتميز بكونها اجتماعية في ماهيتها ومستقلة عن الفرد، وهذه الدراسة هي نفسية وحسب (ص. 132).

– إن اللغة إنتاج للكلام وسيلة له (ص. 32)

– يفترض تعريفنا للغة إبعاد كل ما هو غريب عن كيانها ومنظوماتها، وبكلمة واحدة كل ما نشير إليه "الألسنية الخارجية" (ص. 35).

– إن لعادات أمة ما تأثيراً في لغتها، فضلاً عن أن هذه اللغة هي التي تصنع الأمة إلى حد كبير (ص. 35).

– إن الناتج الاجتماعي أي اللغة والمدخر في دماغ كل منا، لهو الغرض المحسوس لدراستنا هذه (ص. 39).

– فهذه الأخيرة (اللغة) منظومة قائمة على التقابل النفسي لهذه الانطباعات السمعية (ص. 50).

1. المرجع السابق، ص. 219.

— إذا ما ردت اللغة إلى أسها الأول، فإنها في نظر البعض مدونة : أي قائمة عبارات توافق قدرًا من الأشياء (ص. 87) حتى وإن لم يستند إلى هذا التعرف فإنه قد استند عليه وانطلق منه.

— إن العلامة اللسانية لا تربط شيئًا باسم بل تصورًا بصورة سمعية.

وهذه الأخيرة ليست الصوت المادي، الذي هو شيء فيزيائي صرف بل هي الدفع النفسي (ص. 88). ألا يعتقد سوسور بوضوح من الإيحاء أنه يتمثل اللغة من الخارج وليس من الداخل؟ وقوله : «الدفع النفسي» لا يلغي هذا الإيحاء، لأن كل ما في اللغة برمتها شيء نفسي أمر بديهي عنده (الحقيقة أن كل شيء نفسي في اللغة) ثم : «إن العلامة الألسنية إذن هي كيان نفسي»... (ص. 88).

— ومهما أو غلنا في الزمن فإن اللغة تبدو دائمًا ميراثًا للحقبة السابقة أيًا كانت (ص. 93).

— وفي الواقع، ليس هناك من مجتمع إلا ويعرف اللغة أنها نتاج إرث الأجيال السابقة (ص. 94).

هيمنة العوامل الخارجية على سوسور في تعريف اللغة

ومن غير المجدي هنا أن نستمر في الإحالة على تعريف سوسور للغة كجرد نهائي فهو علاوة على شكواه إزاء المصطلحات التي لم تسمح له بتحديد تقسيماته وتقابلاته للغة والعناصر التي تتصل بها، فإن الرجل كما يوهم الكثير من محلي أفكاره حول هذا الموضوع لا يقتصر على تعريف واحد للغة،

لأنه لم يعرفها مرة واحدة، إلا مرتبطة بظاهرة، لكل الظاهرتين :
الخارجية والداخلية هما اللتان طغتا على تعريفاته، لكن العوامل
الخارجية هي الأكثر طغيانا وبروزاً ليس فقط في تعريف اللغة،
ولكن في أغلب ما تناول من دراسات متصلة بها اتصالاً وثيقاً.

ولنَبِّقُ فقط بمقارنة تعاريفه المتعددة هنا لنبين أن هذا اللساني
تعامل مع اللغة من الخارج أكثر مما تعامل معها من الداخل،
علاوة ما أشير إحالة على بعض نصوصه.

— اللغة واقع اجتماعي (ص. 17) بينما هي عند التحويين
الجدد، نتاج للفكر الجمعي للمجموعات اللسانية.

— الحقيقة أن كل شيء نفسي في اللغة (ص. 18).

— سبق أن أوردنا جملة : «إن اللغة إنما هي التي تصنع
وحدة اللسان» (ص. 22).

— إنها (أي اللغة) كنز يدخره الأفراد الذين ينتمون إلى
مجموعة واحدة عبر ممارسة الكلام، وهي منظومة نحوية
موجودة بالقوة في كل دماغ، وعلى وجه التحديد في أدمغة
مجموعة أفراد، إذ إنها لا توجد كاملة تامة عند الفرد وإنما لدى
المجموعة (ص. 25).

— إن اللغة... غرض يمكن دراسته بشكل مستقل (ص. 26).

— إنها (أي اللغة منظومة من) العلامات (ص. 26).

— رأينا أن اللغة إنما هي مؤسسة اجتماعية غير أنها تتميز بسمات
عدة عن المؤسسات الأخرى سياسة كانت أم قانونية (ص. 27).

دي سوسور يطرح إشكالية المصطلح

وكنا قد أشرنا إلى اضطرابات المصطلح والمفاهيم لدى قراء كتاب سوسور المعني وهذا ما شكنا منه دانييل مانيس أيضا بل قد اعترف سوسور نفسه باضطرابات هذه المفاهيم اللسانية لاختلاف أو تفاوت الدلالات في الكلمات التي استعملها سوسور من لغة إلى أخرى : «يجب الملاحظة أننا عرفنا أشياء لا كلمات، هذا وليس لثبوت التمييز من أن يخشى بعض المصطلحات الغامضة التي لا تتطابق بين لغة وأخرى، ومن هنا فإن (Sprache) في اللغة الألمانية تعني "اللسان" كما تعني "اللغة" و(rede) تطابق إلى حد ما الكلام، غير أنها تزيد على الكلام المعنى الخاص "للخطاب"، وفي اللاتينية أن كلمة (Sermo) تعني هي الأخرى "لسانا" و"كلاما" في حين أن كلمة (lingua) تعني اللغة فحسب، وهلم جرا، إنه ليس هناك من كلمة تتطابق تماما ولا كلياً مع أحد المفاهيم التي ألمحنا إليها سابقاً، وهكذا فإن كل تعريف لكلمة ما باطل، كما أن المنهج الذي ينطلق من الكلمات لتحديد الأشياء لهو خاطئ»¹.

ويقول في موطن آخر : «وتحاشيا لتعريفات عقيمة للكلمات، فقد ميزنا أولاً عاملين الظاهرة العامة التي يمثلها اللسان، وهي اللغة والكلام»² ارتياح دي سوسور لأفكار وايتني اللغوية ويظهر جلياً أن سوسور قد ارتاح إلى حد التأثير بأفكار وايتني اللغوية، وأهمها أن اللغة أشبه ما تكون بمؤسسة اجتماعية، وأن وايتني من كان قد ألح على طابع العلامات الاعتبائية، حتى وإن كان لم

1. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 25-26.

2. المرجع السابق، ص. 99.

يصل إلى درجة التمييز فيما هو اعتباطي جذرياً بين اللغة وباقي المؤسسات الأخرى «وبحق، لقد ألح وايتني على طابع العلامات الاعتباطي ليشعرنا أن اللغة مؤسسة محض، ومن هنا فقد وضع الألسنية على محورها الأساسي، غير أنه لم يكمل الشوط حتى النهاية، ولم يدرك أن صفة الاعتباطية هذه تفصل جذريا اللغة عن كل المؤسسات الأخرى»¹.

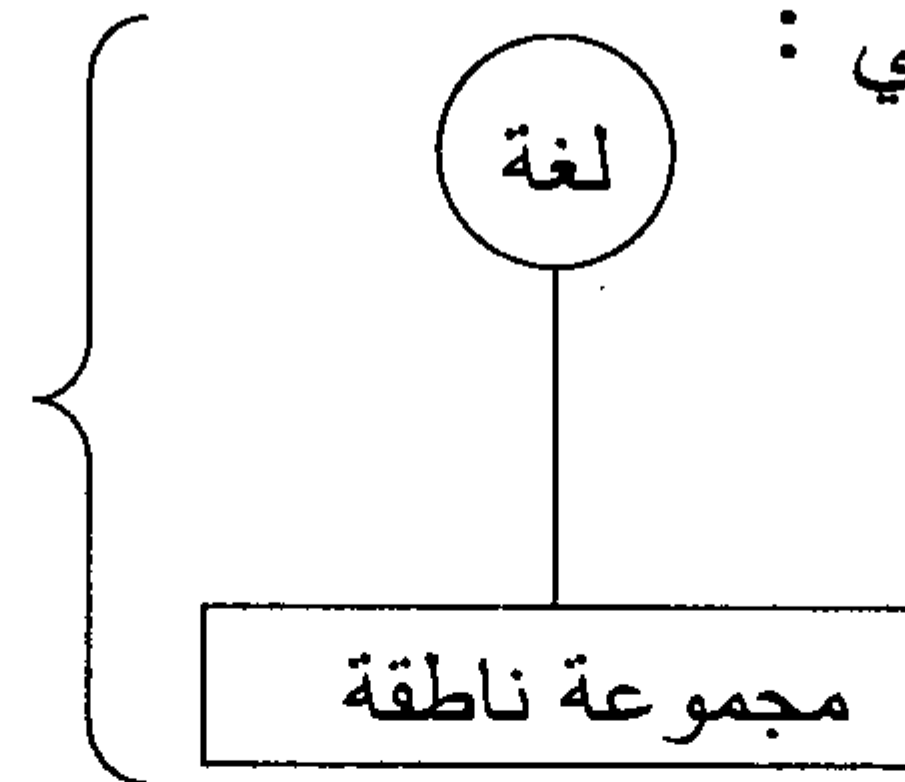
الوضع المتحرك للمنظومة اللغوية

— تشكل اللغة منظومة،... فهذه المنظومة آلية معقدة ولا يمكن إدراكها بغير التفكير، وأولئك الذي يستخدمونها يوميا إنما يهملون ذلك جهلا مريعا (ص. 95).

— إن اللغة في نظرنا إنما هي اللسان مفتقداً الكلام، وهي مجموعة العادات اللغوية التي تسمح للفرد أن يفهم ويُفهم (ص. 99).

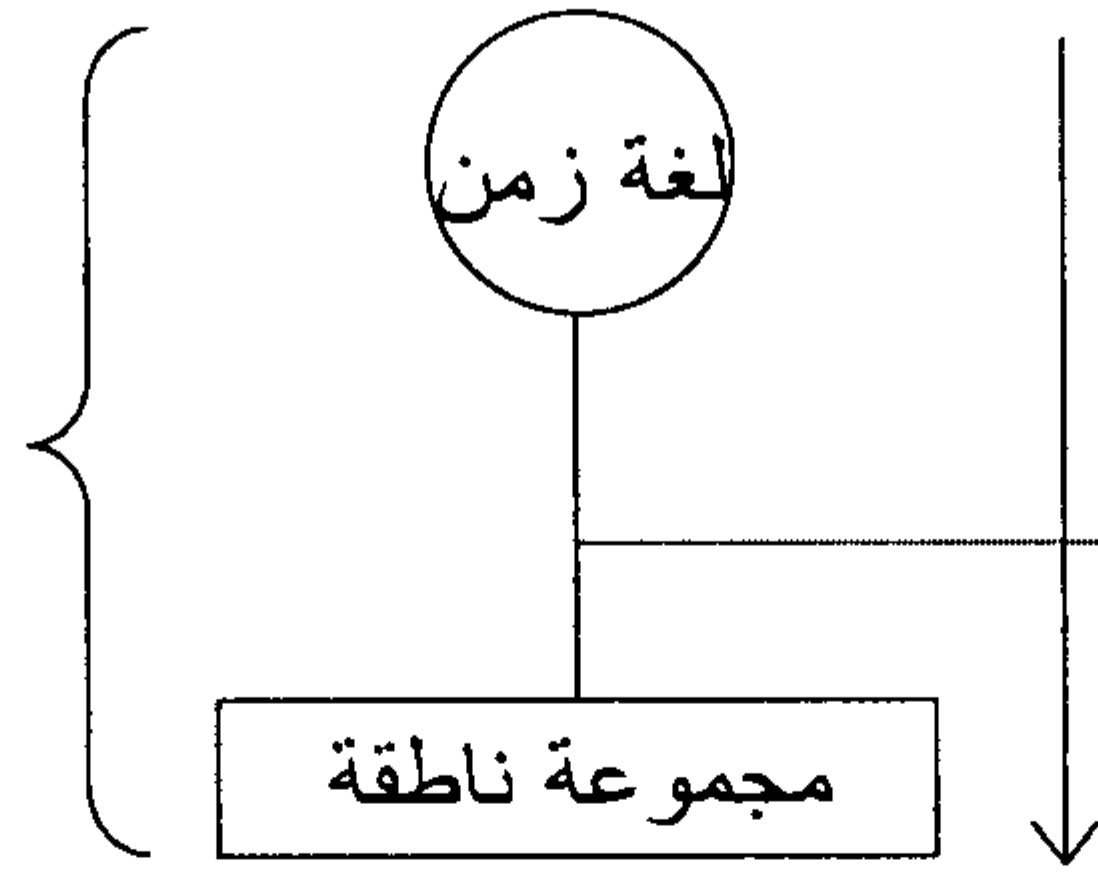
— إن تعريف اللغة الكامل يضعنا أمام شيئين لا ينفصلان كما

يظهر ذلك الرسم التالي :



لكن اللغة لن تبقى في هذا الوضع الآني الحر بل ستمارس عليها هذه المجموعة الناطقة لها، بفعل الزمن، تأثيرات عليها، وبذلك يصير الرسم السابق على النحو التالي :

1. نفس المرجع، ص. 98.



- وقصارى القول : إن اللغة تبدو كمجموعة من العلامات المحددة مسبقا،... إنها كتلة مبهمة (ص. 126).
- ويمكن تشبيه اللغة بورقة، يكون الفكر وجهها الأول والصوت وجهها الآخر، ولا نستطيع فصل أحد الوجهين من دون الآخر في آن والأمر نفسه بالقياس إلى اللغة إذ لا يمكن عزل الصوت عن الفكر (ص. 138).
- يدلنا ما تقدم أن لا وجود في اللغة إلا للاختلافات (ص. 145).
- وفي اللغة كما في أية منظومة أعراضية أن ما يميز علامة ما إنما هو كل ما يشكلها (ص. 147).
- وبعبارة أخرى أن اللغة شكل وليست مادة (147).
- إن اللغة ثوب مكتنز عامر بخرق مصنوعة من نسيجه هو، إن أربعة أخماس الفرنسية إنما هي هندو أوروبية، وذلك إذا ما فكرنا بالمادة التي تتركب منها هذه اللغة، بينما نجد أن الكلمات المنتقلة في كليتها من اللغة الأم الفرنسية الحديثة بلا تغير قياسي نجد أنها تملأ صفحة واحدة (ص. 208). – إن اللغة بالنسبة

لشعور البدائيين عادة وعرف، وهي تشبه في ذلك الزي أو التسليح، وكلمة لغة (idigme) تعني تحديداً اللغة كانعكاس للسمات الخاصة لطائفة ما، وهي هنا تتبدى فكرة سليمة، غير أنها سرعان ما تمسي خطأ وذلك إذا ما رأينا في اللغة صفة للجنس لا للأمة، كما هو لون الجلد أو شكل الرأس (ص. 231).

خلاصة تحليلية في آراء دي سوسور اللسانية

إننا لم نورد مثل هذه الجمل والفقرات المحالة على سوسور تعسفاً ولا حشواً لإتقال هذا الموضوع سلبيًا ولا إيجابيًا، ولكن لنحاول أن ننوع تعريفاته للغة من خلال تنوع المواضيع العديدة التي تناولها سوسور بالدرس والتحليل، وأن إدراكنا لهذه النقطة لا يكون ذا مقارنة مجدية إلا من خلال الإلمام بمواقفه المنهجية إزاء أفكاره العلمية، وليس فقط من خلال التقسيم الشائع، لسان/ لغة/ كلام.

إن اللغة عند سوسور مؤسسة اجتماعية ذات صفة اعتبارية، وهي واقع اجتماعي نفسي من إنتاج المجتمع، وهي التي تصنع وحدة اللسان لدى الأمة، وبالتالي فهي مادة مستوعبة بشكل موزع لدى الأفراد الذين يتراسلون بها عبر الزمان والمكان، لكن صفتها الأخيرة لم تمنعها من أن تكون مستقلة في ماهيتها عن الأفراد على الرغم من أنها إنتاج للكلام وآلة له.

واللغة فضلا عن كونها عادة وعرفا في شعور البدائيين على الأقل، فهي كذلك ميراث للحقب السابقة وأنه لا الفرد ولا حتى الجماعة تستطيع أن تعد لها أو تخلق لغة ثانية خلقا للغة سلفها.

وبما أن اللغة منظومة معقدة من العلامات وأنها كتلة مبهمّة فإنها لا تدرك إلا بإعمال التفكي.

وكون اللغة مستقلة في ماهيتها عن الأفراد لا يعني أنها حرة في الزمن، فبينما تكون اللغة في وضع تزامني حر مرتبط بالمجموعة التي تتكلمها، فإن الزمن في وضع تعاقبي يحل محل اللغة الأنية بفعل عوامل خارجية.

إن المتتبع لأفكار سوسور ليدرك بأنه قد مارس دراسات زمنية أو تاريخية أكثر مما قام بدراسات تزامنية أي أن الطابع الدياكروني والتي تمثل في دراسات تقوم على المقارنة وحياة للألفاظ وتنقل الكلمات والتغيرات الصوتية،... وعلى عوامل خارجية كثيرة تعد الطابع العام لأعماله في هذا الكتاب على الرغم من قوله : «داخلي هو كل ما يغير المنظومة مهما تكن درجة هذا التغيير» (ص. 37) أو كقوله الآخر : «إن هدف الألسنية المنفرد والحقيقي عندنا هو اللغة منظورا إليها في ذاتها ولذاتها» (ص. 280).

القرآن الكريم يعرف اللسان

وبالنسبة لحل هذه الإشكالية وتفهمها في عمقها فيما يخص التقسيمات اللسانية التي أوردها سوسور، فإننا نحيل على آية قرآنية كريمة واحدة : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» حيث يعبر القرآن الكريم تعبيراً واضحاً عن مفهوم اللسان وما هو تابع له على النحو التالي :

— اللسان هنا لغة العرب أو خطابها العام دون تخصيص.

— اللغة ما كان يخص منطقة عربية واسعة أو العرب كلهم لكن بتفاوت لهجي محلي، ولذلك عبر القرآن باللسان، ولم يعبر باللغة، لأن العرب كانوا يطلقون كذلك مصطلح اللغة على اللهجة. — أما الكلام فلا خلاف فيه مصطلحاً ولا أداء، وما أضاف فيه سوسور ومن تقدمه من بعض اللسانيين انه إنتاج فردي لتشكيل ثنائية تقابل : اللغة إنتاج جماعي تماشياً مع مذهب سوسور القائم على الثنائيات :

— دال/مدلول

— لسانيات زمنية/لسانيات تزامنية

— علاقات تركيبية/علاقات ترابطية

— لغة خارجية/لغة داخلية

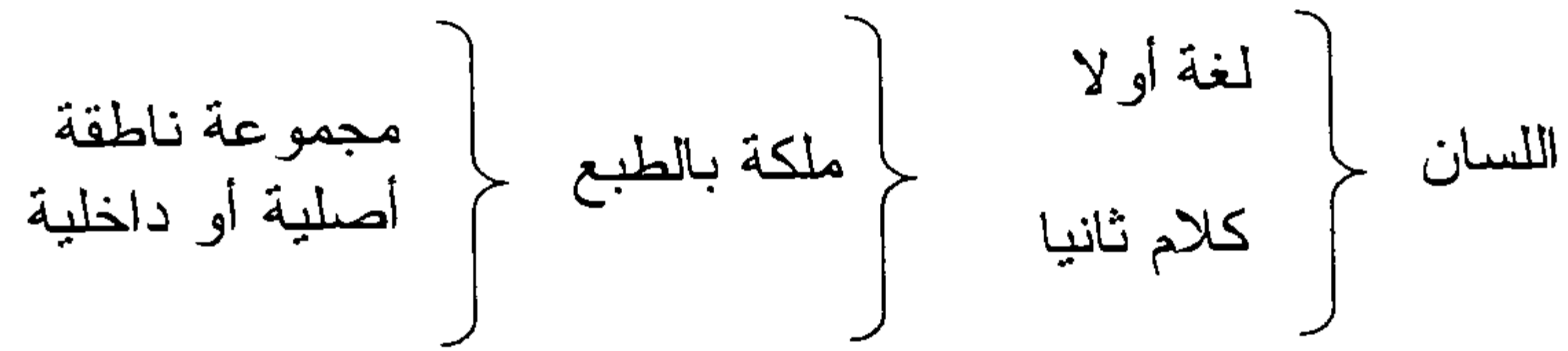
— ماهو لساني/ماهو غير لساني، إلخ.

بين سوسور وابن خلدون

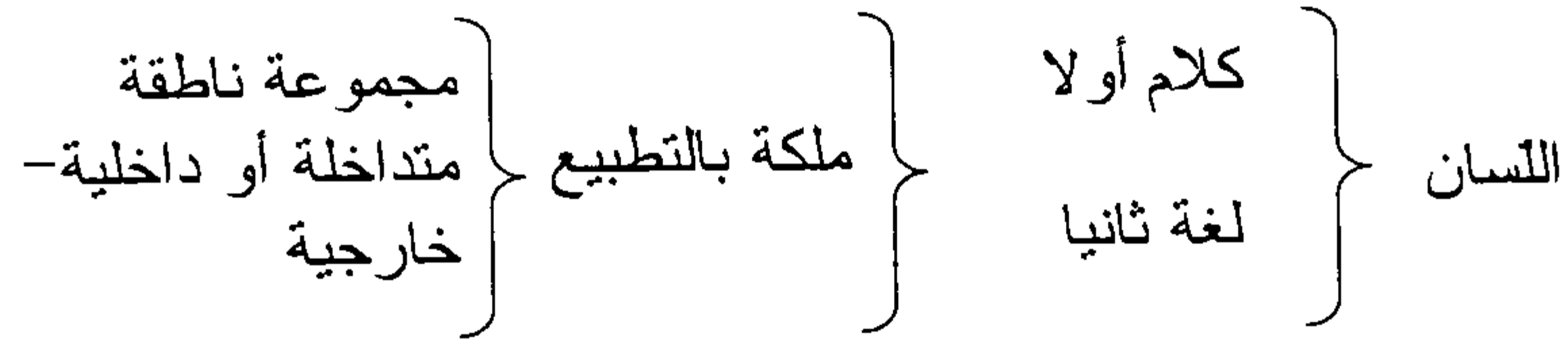
وربما كان التقسيم الخلدوني المستنتج من كلامه عن اللغة وعلومها ووظيفتها وانتشارها،... لا يشذ عن التقسيم السوسوري، فعلاوة على الجدول السابق الذي تصورناه لدى ابن خلدون والدال على العمومي والفردي والجماعي والخصوصي وفق درجات الخطاب ومستواه، فإننا نقيم الجدول التالي والذي أخرناه قصدًا بعد الوقوف، ولو سطحيًا، على مفهوم اللغة والكلام واللسان وما يتصل بها من عوامل خارجية وداخلية عند سوسور الذي يتفق مع ابن خلدون في إخضاع اللغة إلى المجتمع، لكن كظاهرة

فردية ومستقلة عن المؤسسات الاجتماعية الأخرى، وهو ما قال به ابن خلدون إن التقسيم التصوري للغة كأداة خطاب بشري فطري عند ابن خلدون تتم على الفرضيات التالية :

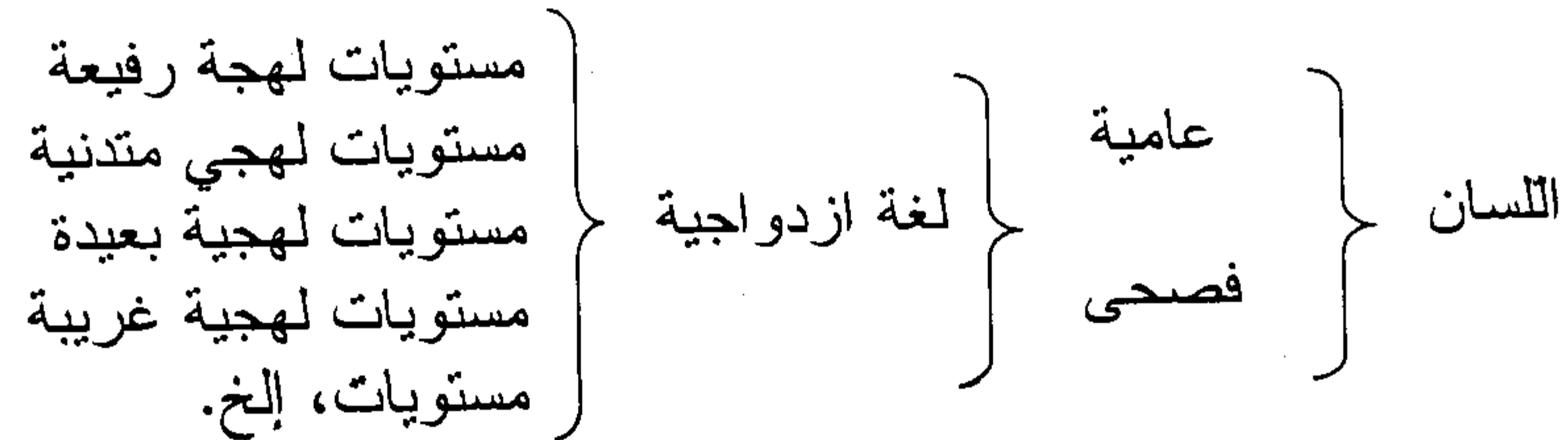
1. ما قبل أو خلال حصول اكتساب الملكة بالطبع المتوارث :



2. ما بعد حصول الملكة بالطبع وانتقالها من الداخلي إلى الخارجي أو مما هو مألوف إلى غير ما هو مألوف :



3. ما بعد الملكة اللسانية بالتطبيع وانتقالها من الخارجي إلى الداخلي (خلال عملية الامتزاج اللغوي) أو ما هو غير مألوف إلى ما هو مألوف (بحيث يصير الخطأ أو اللحن أحياناً هو الصواب) :



لغتنا شبكة مفتوحة من العناصر المتعددة

كنا أشرنا قبل هذا الموضوع إلى أن تعريف اللغة لدى أغلب اللسانيين المعاصرين لم يعد مسوّغاً بمعزل عن اللغة في ذاتها ولذاتها على الرغم من أن هناك فرقاً بين حد العلم وحد الموضوع، ولكنهم لا يفلحون في هذا العزل بشكل مطلق، لأن الشبكة اللغوية على الرغم من كونها منظومة مستقلة ومتميزة عن شبكات اقتصادية وسياسية ونحوهما فإنها ليست مستقلة آلياً إلى درجة أنها لا تتموضع خارج إرادة الفرد الذي يكتسبها ويستعملها بمعنى أن اللغة لا تعرف تعريفها العلمي الصحيح إلا في إطار شبكة مفتوحة لكل الاحتمالات.

نحن لا نسيطر على لغة الحاضر التي نزرع أننا نعرفها ونتقنها إلا من خلال الماضي فقط، ولا نستطيع أن ندعي إلا غروراً بأننا نعرف لغة المستقبل من خلال لغة الحاضر ومن هنا تظل اللغة أو البحث عنها وعن هويتها وما هيتها مرتبطاً بماضيها أي بالأسلاف الذين أودعوها فينا بوسائل وطرق شتى غالباً ما نعزوها إلى عامل وراثي وتعلمي، ثم لا نلبث في أرقى الحالات إن نتساءل عن وصف وتحليل هذه الوسائل والطرق.

ولذلك نجح اللسانيون المعاصرون إلى أن يعرف كل واحد منهم اللغة وفق وصف منهجي أكثر مما هو صياغة تنظيرية للغة في عالم المثل والافتراضات، لأن النظريات السابقة لم تقنع هؤلاء ولذا فإن الحل الوحيد هو أن نتعامل مع اللغة كشبكة مفتوحة على الحاضر من خلال الماضي.

إذا أردنا أن نفهم اللغة عند سوسور مثلاً بشكل أوضح فما علينا إلا أن نقرأ وندرس بعمق العناصر التي حلها داخل اللغة وخارجها، علينا ألا نقتصر على الثنائيات وحدها على حساب باقي، العناصر الأخرى التي بها يتجلى شيئاً فشيئاً مفهومه للغة وما يتعارض معها.

ورأينا تلميحاً، كيف أن تشومسكي حاول أن يعطينا مفهوماً عن تعريف ملموس للغة لكن من خلال اللغة نفسها أي بالنسبة إليه من خلال بنياتها السانتكسية وأفكاره ستكون أكثر اتضاحاً إزاء اللغة لو كنا نتحدث عن البنية السانتكسية للجملة.

أندري مارتيني يعرف اللغة

والمقولة أعلاه تنطبق كذلك على أندري مارتيني الذي يعترف قائلاً: «إنني ألاحظ بكل بساطة أن هناك قضايا تمثل التفصل المضاعف، وبما أن هذه القضايا تستخدم في عملية الاتصال وبما أنها ذات طابع صوتي، فقد قررت أن أسميها "لغات" دون أية مناقشة، وذلك انسجاماً مع الاستعمال الدارج لهذا التعبير، إنني أستخرج بالفعل هذا التعبير "لغة" وأعيد تعريفه انسجاماً مع هذه الملاحظة التي أثبتت وجود أدوات اتصال مضاعفة التفصل وذات طابع صوتي وانطلاقاً من هذا التعريف القائم على أساس تجريبي أتوصل إلى كل النتائج في الحدود التي تفرضها طبيعة للإنسان والمجتمعات البشرية»¹، مما جعل جورج

1. علم اللغة في ق 20، ص. 171.

مونان يعلق : «وينطلى هذا القول، في الواقع، على كامل سلوكية مارتيني العلمية»¹.

اللغة تمفصل مزدوج

إن أندري مارتيني يختلف عن سوسور في أنه يحاول أن يشكل من نظريته لغة أي تعريفاً للغة من خلال التمفصل المزدوج، بحيث يشكل مفهوم الانتقاء التبادلي عند جوهر نظريته المعروفة بالتمفصل المزدوج (double articulation)، لأن هذا المفهوم يعتبر السمة التي تميز اللغة الإنسانية عن جميع أنواع الاتصالات الأخرى².

ولبيان هذه الإشكالية، نحيل على مارتيني نفسه من خلال كتابه "اللسانية السانكرونية (linguistique synchronique) الذي يعد من الكتب القيمة إلى جانب كتابه : عناصر اللسانيات العامة، لكن نظرية التمفصل المزدوج تتردد في غير هذين الكتابين، لكن الإشكال يبقى مطروحاً دائماً في المصطلحات.

إن مارتيني يصرح بأن مفهوم اللغة المتمفصلة يوحي مع ذلك إلى العديد شيئاً آخر غير الجلاء لتتابعات صوتية، وبعد أن يسرد ما يميز لغة الإنسانية عن لغة الحيوان بفضل التمفصل المزدوج الذي يميز الأولى عن الثانية يؤكد على أن اللغة الإنسانية ليست فقط متمفصلة بل مزدوجة التمفصل فالعبارات تتمفصل بالكلمات، وهذه الأخيرة تتمفصل بالأصوات³.

1. نفس المرجع، ص. 171.

2. راجع الموقف الأدبي، العدد السابق : ص. 224.

3. André Martinet, *La linguistique synchronique*, Presses Universitaires de France, p. 7-8,

وإنه ليرى أن اللسانيين خلال وقت طويل لم يولوا أية أهمية لهذا النوع من اللغة الإنسانية «كانوا يبحثون عن إعطاء الأولوية إذن لإثبات أن عدة لغات مشتقة من لغة واحدة أكثر قديماً وبيان نماذج تحالفاتها... إن لسانيي هذه الفترة لم يكن يعنيه العلاقات التي يمكن أن تقام بين الوحدات المتعاقبة للعبارات وكانوا يرون اللغة بأنها نظام من العلامات، لكن الجميع كان متفقاً ليرى في لغة نظاماً من العلامات، لم يكن ثابتاً أن كل نظام من العلامات كان لغة : الأضواء الحمراء، الصفراء، الخضراء التي تنظم المرور في المَدن، إن اللافتات التي تقوم بنفس الدور في المناطق الحضرية والريفية هي بكل وضوح أنظمة من العلامة، هل يجب علينا انطلاقاً من هذا أن نوافق على إعطائها الحق من بين اللغات؟ إن القائلين بالإلحاقية (les annexionnistes) والذين لا يجدون حقول علومهم أكثر فسحة لا يترددون في القول : كل الأنظمة من العلامات هي لغات، بما في ذلك الألعاب كلعبة الضامة والشطرنج، لكن هذا يدعنا بدون أية وسيلة لعصر ما يهم اللساني بوجه أخص لمعرفة اللغة (langage) كما هي تبرز تحت شكل لغات متنوعة (langues diverses) والروسية والصينية، إن هذه اللغات لها سمات مشتركة لا تقاسمها فيها أضواء المرور، ولا لعبة الشطرنج...»¹.

ولنفهم جيداً كيف لأن لغة يمكن لها أن تعرف كتمفصل مزدوج، يكفي أن نفتتح بأن الوظيفة الأساسية للغة الإنسانية هي ما يمكن كل إنسان لتبليغ من يشبهونه تجربته الشخصية.

1. المرجع السابق، ص. 8-9.

إن أصوات الحيوانات مثلا لا شك وأنها تبليغ شيئا ما، هذا التبليغ ليس ذا طابع لساني، وأن ما يميز التبليغ اللساني بالتعارض مع الإنتاجات الصوتية غير اللسانية هو بالضبط هذا التحليل إلى وحدات خطية متعاقبة الواحدة تلو الأخرى، حيث يطلق على هذه الوحدات "المونيمات".

المونيم أو الوحدة الدالة بدل "الكلمة"

إن المونيم عند أندري مارتيني أصغر وحدة دالة في الخطاب وهو سمي هذه الوحدة الدالة بـ "المونيم" خلافاً للمدرسة التوزيعية التي تسميها "المورفيم" لأن الكلمة بالمفهوم الشائع أو التقليدي قد تدل على أكثر من مونيم أو مورفيم أي أصغر وحدة دالة فالفعل "درج" الثلاثي المجرد هو يمثل كلمة ووحدة دالة، لكن حين نصوغه على وزن استفعل كما جاء في القرآن الكريم : «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» فإن «سنستدرجهم» صار يحتوي على ست وحدات دالة إذا لم نأخذ بعين الاعتبار التاء التي يجب البحث عن وحدتها الدالة في إطار مورفولوجي ولبيان ذلك :

— س — : مقابل سوف الدالة على التعيين البعيد.

— ن — : مقابل "نا" الدالة على الفاعل مثله.

— ست — : وحدة دالة على وظيفة مورفولوجية تعارضها

الفعل المجرد.

— درج — : وحدة دالة أصلية.

— ه — : وحدة دالة بالتعارض مثلا مع ك.

— بم — : وحدة دالة تعارضا مع نون النسوة مثلا.

وفي لغة كالفرنسية، فإن جملة (Je vais au marché) مكونة من خمسة مونيمات أو خمس وحدات دالة لأن (Au) مركبة من وحدتين دالتين هما حرف الجر وأداة التعريف (le) والفعل : (partirons) مكون من ثلاثة مونيمات والفعل في العربية : "ذهبوا" مكون من وحدتين دالتين : ذهب + وا. ولذلك يصرح أندري مارتيني : «يجب ألا نعتقد إذن بأن لفظة "مونيم" ليست إلا شكلا متحذقا لتعيين ما نسميه "كلمة" في حياتنا اليومية»¹.

التحليل اللغوي مختلف حسب اللغات

وبالنسبة إليه فإن الكيفية التي تحلل بها مختلف من لغة إلى أخرى ويفهم من بعض جملة أنه لا يستبعد أن تكون اللغة مجموعة من العادات «هذه المجموعة من العادات التي ندعوها لغة (langue) ستقودنا إلى تحليل التجربة لعدة عناصر حيث توجد اللغة لتمنحنا معادلات (des équivalents) فاللغة (la langue) يمكن مثلا أن تملك مونيمًا خاصًا (un monème particulier) مثل (migraine) (صداع نصف الرأس) بدل أربع وحدات متتالية : (mal à la tête) (له وجع في الرأس) فبالنسبة لـ (J'ai mal à la tête) (عندي وجع في الرأس) في اللغة الإسبانية يقال بصفة عادي : (la tête me fait mal) (الرأس يؤلمني أو يوجعني) مع تنظيم مختلف تمامًا لعناصر متنوعة...»².

1. المرجع السابق، ص. 11.

2. نفس المرجع، ص. 11.

التمفصل المزدوج الثاني

أما التمفصل المزدوج الثاني الخاص بالفونيمات فإنه ذو طابع اقتصادي عنده، لكن المونيمات تقدر في كل لغة بالآلاف، وأما الفونيمات فهي محدودة جدًا في كل لغة (24 في الفرنسية و28 في العربية) بمعنى أن مارتيني يعطى تمييزاً واضحاً بين الصوت (le son) و الفونيم (phonème) فكلمة (tête) تحتوي على ثلاثة فونيمات (T/E/T) وعلى هذا فهو يغلب على اللسانيين الذين تقدّموه حيث كانوا مشتغلين خاصة بوحدة العلامة بينما اهتموا التمفصل الثاني، مما جعلهم يتركون عدة سمات أساسية غامضة في التواصل الإنساني، لأننا حين نفكر في الاحتياجات الهائلة والمتنوعة للتواصلات الإنسانية فإنه يتراءى لنا أن لغة الإنسان (langage de l'homme) لا يمكن أن تُرى دون التمفصل المزدوج¹.

تعيين مارتيني اللغة كـ "كفاءة" (Faculté)

ويستمر هذا اللساني في توضيح معنى (langage) ليذكر ما ذا نفهم من "اللغة le langage" هو يعترف بالصعوبات التي يصطدم اللسانيون حين يريدون أن يعطوا قانوناً علمياً للكلمات أو المصطلحات التقليدية "أما في حالة لفظ (langage) (لغة) فإنه لا يبدو من الصعب جداً أن اللسانيات قد عرّقت لنا تقليدياً كعلم اللغة، ويبقى أن نعرف بطبيعة الحال أن نضع تزامناً أو تصادقاً

1. راجع المرجع اعلاه، ص. 13.

للاستعمال العام والاستعمال العلمي للكلمة، والذي يرضي اللسانيين، ففي الكلام العادي، فإن اللغة (le langage) " تعني خاصة الكفاءة (la faculté) التي بحوزة الناس للتفاهم بواسطة الإشارات الصوتية، إننا نتكلم حقا عن لغة الورود وعن لغة البهائم لكن هذه الاستعمالات هنا تبقى مجرد صور، لأنه في كل الحالات يجب أن نعني دائما نوعية "الورود" و"البهائم" إن اللغة (langage) لا أكثر، تعني دائما ملكة إنسانية (une faculté humain)، إن مختلف النماذج لهذه اللغة (le langage) يقال لها "لغات langues" لا توجد أبدا "لغة ورود (langue des fleurs) أو "لغة بهائم"، إن هذه اللغة (le langage) الإنسانية التي تختلف تحت شكل لغات مختلفة (langues diverses) هي إذن الموضوع القاصر على أبحاث هي بالضبط لسانية¹.

العلامات اللسانية وغير اللسانية

وبعد أن يميز بين (langage) و (langue) يعود لي طرح تساؤل لا : هل يكون من المفيد لنا في كل مرة القول بتسمية (langue) أي نظام من العلامات (signes) الاعتبائية (arbitraires) ؟ ثم يحل هذا التساؤل بقوله : « ليس من المرتاب فيه أن الأضواء الملونة المختلفة التي تنظم المرور تكون نظاما من الإرشادات الاعتبائية بالمعنى السوسوري للكلمة والحالة، فإن فحصا من هذا النوع هو في عداد برنامج من الأبحاث السيميولوجية، ولكن لا علاقة لها باللسانيات، إن التعريف اللغوي الذي يقصي إشارة الطريق، حتى تحت اشكالها الأكثر اتفاقا بدقة، لن يكون فقط عقبة لإبعاد

1. المرجع السابق، ص. 18.

الاستعمال العام بكثرة، لكن خاصة إذا أدرجنا في ميدان علوم اللغة، مواضيع للدراسة التي تخرج عن كفاءة اللساني على علاقة، يظهر لنا إذن في كل الحالات أن الإحالة على الإشارات الاعتبارية لن تكون كافية لتعريف اللغة (le langage) ومن ثم يجب علينا أن نبحث عن معيار أكثر نوعية، إن التكلم (le parler) العادي يمكن له هنا أن يسعنا بعض الإسعاف، إننا غالبًا ما نسمع قولاً بأن اللغة الإنسانية (le langage humain) متمفصلة (articulé) بالفعل وإن تفحصًا أكثر سرعة للحقيقة اللسانية كما نعرفها تبرهن بأن اللغة (le langage) الإنسانية يمكن أن تكون موصوفة كتمفصل مزدوج إلى وحدات دالة مونيمات (monèmes) وإلى وحدات مميزة أو تمايزية (distinctives) الفونيمات (phonèmes)»¹.

قراءة تحليلية في ضوء ما سبق من نظريات لسانية

وهكذا فإن أندري مارتيني كغيره من اللسانيين المعاصرين الذين تعرضوا لتعريف اللغة، فإنهم غالبًا ما يعرفونها وفق نظريات يبتكرونها على أنقاض الدراسات اللغوية التراثية، والتي لا تخلو من أصالة في العرض والمنهج كما رأينا خاصة لدى فرديناد دي سوسور وسابير وأندري مارتيني وآخرين.

ورأينا كيف أن اللسانيين المعاصرين أصبحوا يعانون من تحديد المصطلحات، وسبق أن شكنا ابن خلدون من هذا التراكم ليس فقط في حقل علم اللغة بل في كل المعارف والصنائع، وهذه

1. المرجع السابق، ص. 21.

الشكوى وجدناها عند سوسور ثم عند مارتيني كما نجدها عند هلمسليف الذي كوّن معجمًا خاصًا للعمل في حقل العلوم اللغوية. لكن الذي لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن اللغة الإنسانية لا تحتاج بالقوة إلى علوم من ذاتها أو مستقلة عنها في حين أن هذه العلوم لن تقوم إلا بها ولن تكون مستقلة عنها، ولذلك انتقد سوسور حين زعم بأن اللسانيات تدخل في عداد السيميولوجيا حيث لم يميز في هذه الحالة بين ما هو لساني وغير لساني، بل نفهم من هذا أنه يعطي امتيازًا للإشارات غير اللسانية على حساب العلامات اللسانية.

وعليه فإن الإنسان هو الذي يبحث عن ذاته من خلال لغته، لكنه غالبًا ما يخفق في كل مرة وهو يحاول أن يبحث فيها عن لغته من خلال بنيته الثقافية التي لم تتكون عنده إلا من هذه اللغة نفسها.

إن النظريات اللغوية التي وقفنا عليها حتى الآن لم توف اللغة حقها فالنظريات القديمة غالبًا ما تنبذ منذ أول نظرة وأما الحديثة فإنها لا تظل تدور إلا في منهج خاص بصاحبه أكثر مما تتناول اللغة في الصميم، وهكذا تبقى اللغة ذلك السر العجيب القاهر لكل باحث سطحي أو متضلع.

وأيا كانت هذه النظرية أو تلك، ومهما كانت الأسرار التي تكنف لغتنا والتي تعد فوق طاقة الإنسان الفكرية والعقلية، فإن اللغة تظل تحتل موقعًا أساسيًا في ثقافة الإنسان وعاداته وتقاليده،

لأن الإنسان مبرمج قبل كل شيء ليتكلم، ولا يهمله مبدئياً ماذا سيتكلم، مبرمج لاكتساب لغة أو لغات (langues) مهما كان نوعها ومنزلته منها، لأن اللغة (le langage) مهياة لتلبية الحاجات الأساسية للنوع البشري، وهذه الغريزة نحو اللغة تولد في الإنسان خلقاً للحرف والمهن والتصرفات والرغبات الأخرى.

إننا نتعلم اللغة (le langage) كما أشار مارتيني تحت شكل من اللسان (la langue) الخاص بمجموعة لسانية حتى يظهر في فعل من الكلام، ويمثل الفاعل المتكلم (le sujet parlant) المحور المركزي للغة (le langage) وأن اللغة لا يمكن لها أن تدرس خارج مرجعها لدى المتكلم.

«إن هدف اللسانيات المعاصرة اليوم إذن هو سبر الآليات للغة (langage) عبر اللغات أو الألسن المحكية من قبل الناس، والحالة هذه، فإنها تملك خاصية تميزها عن العلوم الأخرى، لا يمكن فهم موضوعها أو وصفه أو تحليله إلا من خلال الاستعمال للغة (langage) ذاتها: توجد علاقة يقال لها: ما وراء لساني (Métalinguistique) بين اللغة (le langage) موضوعاً للتحليل، وبين اللغة (le langage) أداة لهذا لتحليل»¹.

عموماً، فإن اللغة والكلام، بالنسبة لسوسور يعدان في عداد اللغة (le langage)، لكن ينبغي ألا نلبس الأمور هنا، فاللسان (la langue) ليس إلا جزءاً معيناً من اللغة (langage) ولذلك فإن

1. Marina Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, Paris, p. 12-13.

اللسانيين اليوم يعتبرون أن «اللغة (langage) تكون إنتاجا تاريخيا معقدا من النشاط الإنساني»¹.

ومع ذلك بالنسبة لسوسور، فإن تعريفاته ستظل غير مقنعة حيناً ولا واضحة حيناً آخر لدى التطوريين على الأقل، لكنها تبقى مرضية عند الأنبيين أو البنيويين، لأنها تحاليل وصفية لما هو كائن فعلاً، وتاريخية لما كان وانقضى، واستناداً إلى الظاهرة نفسها حين يكون تحليله أنياً، وإلى الظاهرة مع غيره حين يكون سرده تاريخياً.

غير أن التطوريين الذين لا يحبذون منهجية الوصفي على حساب اهمال ولو للحظة ما من السيرورة اللغوية، لا يقتنعون بوصف الظاهرة سطحياً بحيث تقسم إلى ما هو زمني وتزامني لأنه ليس سهلاً أن نقيم حداً فاصلاً صارماً لحظياً بين الخطيين اللذين يكفيهما تضامنيا وتآلفاً أنهما متعامدان أي متلاقيان على الأقل في نقطة هي الصفر، لكن الصفر هنا ليس عنصراً وهمياً أو على الأقل إيجابياً.

إن لغتنا على ما يحيط بها من أوهام ميتافيزيقية ونظريات بعضها خرافي وآخرها جزافي أكثر مما هو حقيقة علمية ملموسة أو محتملة ليست بالمعجزة العلمية التي تبهر الإنسان في معرفة ما نطق به من أول صيحة إلى آخر نفس، لكنها ستظل معجزة فكرية ما دامت النظريات اللغوية تتباين أكثر مما تتقارب، وتتوازي أزيد مما تتقاطع حسب ذات العقلية الإنسانية وتصوره.

1. Frédéric François, *Linguistique*, p. 39.

وأعتقد أن التعامل مع هذا اللغز المعلق خارج الطاقة البشرية حتى الآن، لا يتم إلا من خلال سبر الظاهرة نفسها دون إهمال كل ما يتقاطع معها فضائياً من الداخل أو من الخارج.

المراجع باللغة العربية

1. علم اللغة في القرن العشرين، جورج موانان ترجمة : د. نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي السورية.
2. أصول النحو العربي، د. محمد خير الحلواني جامعة تشرين اللاذقية ط : 1979.
3. محاضرات في الألسنية العامة، فرديناد دي سوسور. ترجمة : يوسف غازي، مجيد النصر، دار نعمان للثقافة، بيروت، لبنان.
4. اللهجات العربية القديمة، د. داود سلوم.
5. الأشباه والنظائر، الثعالبي، تحقيق : محمد المصري سعد الدين، دار طباعة والنشر والتوزيع، ط1/1984، القاهرة.
6. المقدمة : ابن خلدون، مط، مصطفى محمد، القاهرة.
7. بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب، عبد الجليل مرتاض، مؤسسة الأشرف، ط1/ 1988 بيروت لبنان.
8. العربية بين الطبع والتطبيع، عبد الجليل مرتاض ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط : 1993.
9. الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
10. طبقات الشعراء، محمد بن سلام الجمحي تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

11. فقه اللغة (الصاجي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) أبو الحين أحمد بن فارس، تحقيق د، مصطفى الشويمي مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1963.
12. علم اللغة : دانييل مانيس، الموقف الأدبي عدد 135-136 عام 1982.
13. دراسات لغوية في ضوء الماركسية، ترجمة د. ميشال عاصي دار ابن خلدون، بيروت.
14. نظريات في اللغة، أنيس فريحة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1/1973.
15. مدخل إلى اللسانيات، رونالد إيلوار. ترجمة، د. بدر الدين القاسم، جامعة دمشق، ط : 1980.
16. الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، ط : 1959، مطبعة المدني، مصر.
17. الموشح المرزباني، تحقيق : محمد البجاوي، ط : 1965، دار النهضة، مصر.
18. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، طبعة ليدن، 1902.
19. التحولات الجديدة للسانيات التاريخية. عبد الجليل مرتاض دار هومة، الجزائر، 2001.

المراجع باللغة الأجنبية

1. Edward Sapir, *Le langage*, Petite Bibliothèque PAYOT, Paris.
2. Joseph Vendryes, *Le langage*, édition Albin Michel, 1979.
3. Oswald Ducrot et Tzvetant Odorov, *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Edition du seuil, Paris.
4. Pierre Delattre, *Les sciences structurales : Pourquoi faire ?* Hachette.
5. Marina Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, édition du seuil, Paris, 1987.
6. Noam Chomsky, *Structure Syntaxique*, édition du seuil, Paris, 1969.
7. Charles Gordert, *Guide pratique de la grammaire française*, Hachette, 1978.
8. J.L – Chiss, J – Fillidlet, D. Mainguenau, *Initiation à la problématique structurelle*, Tome 2, Hachette, Paris.
9. Daniel Delas et Jacques Fillidlet, *Linguistique et poétique*, librairie Larousse, Paris.
10. Denis Girard, *Linguistique appliquée et didactique des langues*, édition Armand colin longman, 1972.
11. Jean-Baptiste Barinon et Genèvieve Dupont, *Comprendre la linguistique*, Marabout université,.
12. Bertil Malbe, *Les nouvelles tendances de la linguistique*, Presses universitaires de France, Paris, 1972.
13. William Labov, *Sociolinguistique*, les éditions de minuit, Paris
14. *Lire aujourd'hui* (C.L.G) Carol Sanders.
15. André Martinet, *La linguistique Synchronique*, Presses Universitaires de France, 1974.

16. *La Linguistique*, sous la direction de Frédéric François.
17. Nicolas Ruwet, *Théories Syntaxiques*, édition du seuil 1972.
18. Georges Mounin, *Clefs pour la linguistique générale*. édition Seghers, Paris, 1971.
19. *Introduction à la linguistique*, Galisson.
20. Jean Guenot, *Les langues vivantes*. édition Seghers, Paris, 1971.
21. Gérard Lecompte, *Grammaire de l'arabe*, Presses Universitaires de France, 1968.
22. Henri Fleisch, *Traité de philologie*, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1967.

فهرس

مقدمة 3

الباب الأول

وقائع سانتكسية في العربية القديمة

الفصل الأول : شفوية التراكيب السانتكسية في العربية 7
الفصل الثاني : بين السانتكس التقليدي والمعاصر 15
الفصل الثالث : في السانتكس العربي القديم 25

الباب الثاني

وجهات نظر لسانية في اللغة والاكْتساب

الفصل الأول : طرائق ومراحل الاكْتساب اللغوي 39
الفصل الثاني : الإكْتساب اللغوي عند الفرد العربي
بين العفوية والنظريات اللسانية 55
الفصل الثالث : تنظيرات لسانية للغة الإنسانية 95